كتاب الهلال
سلسلة ثقافية شهرية

القاهرة

تأليف: ديزموند ستيوارت • ترجمة: يحيى حقي • مقدمة: د. جمال حمدان

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهريه تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : كامل زهيرى

٢١٦ ـ ذو الحجة ١٣٨٨ ـ مارس ١٩٦٩

No. 216 - Mars 1969

مركز الادارة

دار الهـلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخـارج بتحويل أو

ع٠م) ـ والاسعار

ـاف رسوم البريد

ـعار المحـددة ..

إهـــــداء 2005

أ/إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـلاف بريشـة
الفنان حلمى التونى

القاهرة

•

تأليف

ديزموند ستيوارت

ترجمة

يحيى حقي

مقدمة

د. جمال حمدان

•

دار الهلال

هـذا الكتاب ..

لم يستطع معول التنظيم الغشوم ، ولا أكداس العمارات الشاهقة المسلحة بالأسمنت ، ولا غوائل الشوارع الطارئة المفروشة بالاسفلت ، ولا احياء حجارة الدومينو تنبت كالفطر وتتضخم كالسرطان ، شقا الى القلب كالطعنة النجلاء أو لفا على الجوانب ، غلافا فوق غلاف ، ولا ظل قبعة قميئة مستعارة وضعتها على الرأس يد عمياء متلهفة على التقليد ــ لم يستطع شيء من هذا كله أن يمس طابعها الأصيل وجلالها المكنون ــ هبة لها من حضارة الشرق ، ونفحة من سماته ، كلاهما خارج عن متناول الزمن وعواديه . ان كنت تأنس لجمالها حين يطوف به خيالك اذ هو بالأمس فى قصره ، فى عز مجده فانك أشد انسا به وانت تزوره اليوم فتراه منكمشا منزويا فى صومعته . بقى من الثمرة سر الحياة والديمومة فى نواتها الصلبة ، هيهات ان تتحطم ، انها صلابة الدفاع المستميت فى آخر خندق ، وهذا التجمل بالستر اذ الود فاتر ومنسى أشد نبلا من اريحيتها واغداقها اذ هى مأخوذة بالأحضان والدنيا مقبلة ..

لم تستطع الأسطح المتعالية يوما بعد يوم أن تحجب مآذنها العديدة ، باقية هى ناجية بشممها وشموخها ، ولا الضجة الهائلة التى اندلقت عليها أن تخنق ضراعات هذه

المآذن ، يخشـــع لها القلب وتطرب الاذن عند مولد كل فجر ..

جدران عتيقة يتراكم عليها التاريخ ،آية فى فن العمارة ، فى ذروة الصدق ، تصون داخلها امثلة رائعة للجمال ، تحكى فى صمت قصة آلاف من الفنانين بناة الحضـارة عملوا فى ورع وهم متطهرون ثم مضوا لا يعرف اسماءهم احد ، ولا يذكرهم احد ، حق لهم أن يتضاعف ثوابهم ، جزاؤهم عند رب لهم عليم ..

واسواق لا تزال متشـبثة بأمكنتها ، كأن لها جـذورا ضـاربة الى الأعمــاق ، هيهات أن تنقصف أو تذوى ، شاخت ولكنها لا تزال متشحة باطياف من وسامة شبابها وزينة عرسها . تفير عن يمين ، عن يسار ، من حول كائن واحد لا يتغير ، ابن البلد ، بكزمه ومروءته ، بلطفه وظرفه ، ببشاشته وخفة دمه ، بنكاته وقفشاته ، بذكائه وحضور بديهته ، هو الذى رقق العامية على لسانه واثراها بأبدع مجاز واستعارة ، ساخر وحكيم ، تحسبه لطيبته غرا ولكنه « حويط » ، يلقط العملة الصحيحة ولو ممسوحة من بين عملة كثيرة زائفة ولو براقة ، لا يحطى عليه الكذب والنفاق ودموع التماسيح ..

هذه هى القاهرة ، ان كنت لا تعرفها يا أخى فاعرفها ، اذن ستحبها ، ستعشقها ، ستنضم الى زمرة عشاق لهـا كثيرين ، هاموا بها ولاء والتحاما ، منذ أن ألقى فى نهر النيل عقدها ما تخلف عن ولادتهم من مشيمة مصرورة فى منديل ، عشق بالغريزة ، بالارث ، بالقسمة والنصيب والحمد لقدر لا تعلل تصاريفه ..

لم أعرف عيـــدا قوميا تمثل لى فيه لقاء موعود مع حبيب كالعيد الألفى للقاهرة ، بلدى الذى ولدت فيه ،

ونشأت فى أحيائه العتيقة الشعبية ، تحس أعصابى قبل عقلى بمقدم العيد ، وددت ان أشارك أهلى فى الاحتفال به فاخترت أن أترجم لهم عن الانجليزية كتابا ان صدر سنة ١٩٦٥ فهو لا يزال ــ بقدر علمى ــ من أحدث الكتب التى الفت عن القاهرة . كتبه ديزموند ستيوارت الذى يتكلم العربية وتعرفه أوساط الصحافة عندنا لأنه عمل بها واقام بيننا طويلا ، وله فى بلده انتاج ادبى ، متعدد متنوع . اخترت كتابه لأنه صغير الحجم ، ملموم ، فصوله محددة أجمل تحديد ، موصولة ببراعة ، أرجو أن تلحظ كيف كان أول تناوله للقاهرة من ناحية طابعها الصحراوى لأنها ــ بل الوادى كله ــ فى حضن الصحراء ، ثم من ناحية طابعها النهرى ، ثم يمضى يساير التاريخ فى فصول يأخذ فيها اللاحق من السابق ..

وأحب أن أنبهك أن هذا الكتاب هو كلام أجنبى ، مقصود به خدمة زائر أجنبى يقدم الى بلادنا لأول مرة ، فالحديث له لا للمصريين . لا تضق ذرعا اذن بمعلومات وردت به هى غير مجهولة لك ، بل لعلك تجد متعة فى مقارنة دلالتها عندك بدلالتها عند المؤلف ، لذلك فانه يرسم لهذا الزائر طريقه الى المساجد والكنائس ، ويقيس له زمن المشوار مشيا بالساعة والدقيقة ، ويحدد له اسعار فنجان القهوة وقطار حلوان ودخول المتاحف ، ولكنه يقتصد فى هذه الارشادات العملية ويتخذ طريقا وسطا ، فلا يتسم بهذا الجفاف العلمى الذى تجده فى مؤلفات فقهاء الآثار ، ووقوفهم الطويل امام الأحجار والعقود والمقرنصات ، (وضع الأجانب مصطلحات العمارة ونحن لا نزال فى حيرة لا نستقر على مصطلح نستخدمه فى التأليف أو الترجمة) ولا يتسم الكتاب كذلك بالجفاف التجارى الذى تجده فى

كتب دلالة السياح ، ولم يقصد المؤلف أن يقدم لنا فى صورة مختصرة معلومات كثيرة استقاها من المراجع ، وانما أراد أن يحكي بأسلوب ادبى للزائر الأجنبى (وقد افترض فيه هيامه بالفن وجوانب الطرافة فى الحى والجماد) ما احس به هو ذاته داخل نفسه وهو يجوب أحياء القاهرة يعرض احاسيسه على لوحة من الحقائق التاريخية التى استمدها من مراجعها الوثيقة ، انه راى الألوان واطياف الالوان وشم الروائح وسمع الهدير والصمت واستقرأ الوجوه والاسطح والجدران وأكوام القمامة ، كم كنت أود ان يكتب كل أديب كبير عندنا عن القاهرة ويصف لنا وقعها على نفسه كما فعل هذا الاجنبى . انك لا تملك الا ان تحس أنه يحب القاهرة حبا كبيرا ، ولكن بقيت مع ذلك فى نفسى من الكتاب أشياء تململت لها ، أبقيتها ليكون النص العربى مطابقا للنص الانجليزى تمام المطابقة ، وكان من الواجب أن لا تترك بغير تعليق يتولاه من هو أعلم منى بالتاريخ ، ودعنى أعترف لك أننى ما تناولت كتابا لأجنبى يصف فيه بلدى فأراه يلقى عليه نظرة جديدة تعتمد على ثقافة شاملة وتحاول النفوذ بالحس المرهف الى السر من تحت السطح الا تملكنى شىء من الحسرة والغيرة ، قد يصدنى أحيانا عن متابعة الكتاب لئلا احكم بنفسى على خيابتى وقصور بصرى ، وهذه هى حيلة العاجز المعتذر مع ذلك بأن نيته فى النهوض صادقة ، والنية بلا عمل كالبندقية بلا رصاصة ، فأبناء بلدى هم عندى أولى الناس بفهم بلدى وخدمته ، لن أتخوف — شأنى مع الأجانب — شبهة التجنى عن سوء فهم ، أحيانا عن سوء قصد ، ثم أعود للكتاب وأنا أقول ان الاجنبى أقدر من ابن البلد على الرؤية لانه ليس مثله ضحية الالفة المستنزفة لجدة الانتباه

والعجب ، المفضية الى عناق تموت فيه اللهفة وان بقى الحب ، واشهد ان ديزموند ســـتيورات أرانى لاول مرة أشياء كان يقع عليها بصرى من قبل ولا أنتبه لها ..

ونحن الآن نحتفل بالعيد الالفى للقاهرة ، الام التى نحلف بجمالها وننعم بحضنها . سنقرأ ولا ريب أعمالا بديعة تتحدث عن التاريخ والاثار والعمـــارة والخطط وتراجم الاعيان ، ولكن الذى ابحث عنه هو كتاب يتحـــدث عن القاهرة حديث عاشق عن عشيقته ، حديث انسان حي عن انسان حي ينفرد بملامح ثابتة وان تقلبت ثيابه . لن يخط هذا الكتاب قلم مؤرخ أو عالم آثار ، بل قلم أديب ابن بلد ، او قل قلم شاعر يكتب بالنثر ، والعجيب اننى وجدت ضالتى لا عند أديب أو شاعر بل عند صـــديقى الاستاذ عبد الفتاح عيد ، نابغة فن التصوير الفوتوغرافى فى بلدنا ، فان لوحاته عن القاهرة شـــعر ونغم ، وحس مرهف ، وفيض حب كامن فى أعماق القلب . وكم كنت اتمنى أن يصـــحب الاحتفال بذل جهود كبيرة للتعريف بالقاهرة والحض على حبها . اتمنى أن تنظم لنا جولات صباحية أيام العطلة مشيا على الاقدام ، بالمجان ، فى صحبة عالم آثار لا دليل سياح ، يشرح ويفسر . جهود اخرى للمناداة بصيانة الآثار الاسلامية فى ذاتها وفى نوع الجيرة من حولها ، واثارة الاهتمام بفن العمارة ، فمن العار ان لا تصدر مجلة للعمارة فى القاهرة أم العمارة ، والمطلب من هذا كله هو حث المعماريين عندنا على الوصول الى طراز يلائم طبعنا وجونا ، ويستمد من تراثنا ، فما أشد ابتلاءنا بعمارات مستوردة لا تناسبنا ، نذل بها وتذل هى بالغربة عن مواطنها ، لا تنفعنا كما نفعت أهلها ، فالشقاء مزدوج متبادل ..

يحيى حقى

مقدمة

القاهرة الكبرى
دراسة فى جغرافية المدن

بقلم : د . جمال حمدان

اذا عدت المدن العواصم العظمى فى العالم ، فالقاهرة واردة بالتأكيد فى العشرة الاولى أو العشرة ونيف . وهي المدينة الاولى ــ المطلقة ــ فى قطاع هائل متصل من العالم القديم قد يتجاوز ثلثه مساحة ويتعدى افاق القارة الافريقية الى تخوم الالب ووسط آسيا . بل ان بضعة لا يستهان بها من الدول الافريقية لتقل سكانا ــ سكان كل منهما أقصد ــ عن حجم القاهرة كثيرا او قليلا ، وذلك حتى دون أن نذكر ان القاهرة تستأثر وحدها بنحو نصف سكان العواصم الافريقية الخمسين مجتمعة !

وان حصرت العواصم المخضرمة العريقة فى الدنيا ، فلعل القاهرة (واسلافها او بأسلافها) هى أم المدن جميعا ،وعلى اية حال فقليلة جدا هى المدن التى يمكن ــ كدمشق ــ ان تنافسها فى هذه الصدارة . وحتى نتمثل هذا البعد الزمانى السحيق بشىء من التجسيد الذهنى ، يكفى أن نقول انه قد يعادل مجموع تاريخ حفنة ليست بالقليلة من عواصم غرب أوربا ، وقد يرجح كل تاريخ عواصم العالم الجديد مجتمعة ..

اما اذا اعتبرنا الوزن الحضارى والنفوذ السياسى والوقع والاشعاع القومى والفكرى ، فما من عاصمة فيما نظن لها فى دولتها ما للقاهرة من ثقل ومركزية طاغية

وسيطرة أو توجيه ، بل والى حد الافراط ربما . ولقد يختلف علماء المدن حول السؤال القديم : هل العواصم هى اكبر وخير ما يمثل ويجسم روح بلدها وكيانه وذلك باعتبارها بوتقة تنصهر فيها عناصره وأقاليمه ، أم هى بطبيعتها العالمية الكوزموبوليتانية بالضرورة وبما تضم من جاليات واجناس أجنبية وبما تتطلع دائما الى الخارج تؤلف فيما بينها طبقة « كاستية » خاصة من المدن فى العالم أشبه ببعضها البعض منها بصميم اقطارها المحلية ؟ مهما اختلف الرد ، فلا خلاف فى حالة القاهرة ، ولا يمكن له أن يقوم ، فهاهنا عاصمة تستقطر وتستقطب روح الوطن وترمز الى جوهر كيـــانه حضاريا وماديا ، جغرافيـــا وتاريخيا ، ربما كما لا تفعل عاصمة أخرى

هذه اذن هى القاهرة : تاريخ مفعم مجمد أو محفوظ ، كل حجر فيها مشبع بعبق الماضى وعرقه ، وكل شبر منها يحمل بصمات الانسان . انها ــ كبيت جماعى كبير ، وكمنطقة مبنية لا مثيل لكتلتها فى مصر ــ عمل فنى من مقياس ضخم مهندسه وساكنه هو المصرى ، وهى بهـــذا اكثر او اكثف رقعة من اللاندسكيب الحضارى فى مصر « تبشيرا » وحملا للطابع البشرى ، وبنفس الدرجة أبعدها عن ملامح الطبيعة الخام واللاندسكيب الطبيعى الغفل للوادى ..

ورغم هذا كله ، فان القاهرة من اسف من اقل العواصم حظا فى دراسات المدن العلمية الحديثة . كثيرة هى لاشك الكتابات الاكاديمية والشعبية المتاحة عن هذه المدينـــة الخالدة ، ولكن الغالب عليها اما التاريخ عموما أو تاريخ العمران أو الاثار خصوصا . وربما أضفنا بعض كتابات « هواة المدن » من الرحالة أو الادباء أو الصحفيين ،

لا سيما منهم الاجانب

أما دراسة المدينة ككل حى متعضون فوار محــــدد السمات والقسمات ، كمجتمع مركب متلاطم مضطـرم يضطرب فى وعاء جغرافى واضح المعالم بارز التضاريس ، أما دراسات علم اجتماع المدن وجغرافية المـدن بوجه خاص ، أما مورفولوجية القاهرة الكبــرى ، تركيبهـا الوظيفى ، ايكولوجيتها البشرية ، نموها السكانى وزحفها العمرانى وضوابطه ، هيدرولوجية النقل ومشــاكله الخانقة المختنقة ، الطبوغرافيا الاجتماعية والتــوزيع الجغرافى للطبقات والحـرف ، اقليم المدينة وحـدوده ، التخطيط المستقبلى ومؤشراته .. الخ ، اما هذا كله فما زال فراغا مقلقا وأرضا بكرا (ولا نقول مجهولة) منـذ ظهرت أول وآخر محاولة جادة فى هذا الميدان الخضم ، ونعنى بها دراسة كليرجيه (١) فى الثلاثينات ، والتى دفع بها نمو العاصمة المدى الانفجارى الحديث الى زوايا المكتبة التاريخية بدرجة أو بأخرى

والكتاب الحالى الذى نقدم له بين يدى القارىء نموذج شيق وطريف بل وبارع لكتابات المثقفين من الصحفيين الرحالة الاجانب هـواة المدن الذين يحـاولون بذكاء أن يستقطروا روح أمة وشخصية بلد من خلال عاصمتها وعن طريق التجربة الحية والخبرة الشخصية ، مدعمة بقراءة واسعة فى التاريخ والتراث تترامى من الفولكلور

---

(1) Marcel Clerget, Le Caire, Etude de Géographie Urbaine et d'Histoire Economique, Le Caire, 1934, (2 vols.).

الى اللغات ، ومن الدين الى الادب ، ومن الجغرافيا والاجتماع الى العمارة والهندسة .. الخ

ولقد يختلف القارىء مع بعض الاحكام والنظرات التى أوردها المؤلف كأجنبى عابر ، فهذا أمر لا مفر منه وتلك عموما نقطة ضعف الكاتب الاجنبى ايا كان ومهما حاول ، ولكن من المحقق ــ بالمقابل ــ أننا سنلمس لمسا نقطة القوة وميزة العين الاجنبية النافذة الثاقبة ترى وتلتقط من اللمحات الشفافة واللفتات الدقيقة اللماحة ما قد اخفى الالف عن عين صاحب الشأن نفسه حتى غاب عنه أو كاد

الكتاب اذن ــ فى كلمة ــ قصة رحلة travelogue رحلة فى الزمان والمكان ، طولها مدينة وعرضها زيارة . ولكنها قصة دسمة ثرية مع ذلك ، وممتعة وجذابة الى ذلك . انه سياحة بلا دليل ، وتاريخ بلا أرقام ، وجغرافية بلا خرائط ، وهندسة وعمارة بلا لوحات ، واجتماع بلا نظريات ، وايضا سياسة بلا شعارات : قل باختصار :علم وثقافة بلا دموع ، كما يعبر الاوربيون

نعم ، بلا دموع . ومن هنا بالدقة تبدا مهمة هذه المقدمة . ففى تصورنا أن مثلها ــ لا سيما ونحن نحتفل بالعيد الالفى للقاهرة ــ ينبغى ان يوفر الاساس العلمى الصلب ، والقاعدة المادية والفيزيقية لهذا البناء المدنى الشامخ المعقد والمتعدد الابعاد . فلعل من المفيد للقاهرى ابن العاصمة ، وللمصرى أبى العاصمة ، فضلا عن اخيها العربى ، أن يكون لنفسه خريطة ذهنية مبسطة تلم شتات مدينته المترامية وأطرافها فى صورة اختزالية متكاملة دالة وهادفة ، تؤكد الخطوط العريضة فى هيكلها وتكمل خبرته اليومية ومعايشته الجارية لاحيائها وحياتها

لتكن هذه ، اذن وبعبارة أخرى ، مقدمة مبسطة فى

جغرافية المدينة ، تحلل الاساس الطبيعى الذى تقوم عليه العاصمة موقعا وموضعا ، وتتتبع نموها العمرانى فى ظاهرها وظهيرها ، وكذلك خطتها الهندسية وكتلتها المبنية ، ثم تحدد وظائفها وتوزع طبقاتها الاجتماعية وأقاليمها التركيبية ، وقد تعالج أهم مشاكلها واختناقاتها . وكثير من هذه ـ بالفعل ـ جوانب عرض لها الكتاب بصورة أو بأخرى

أما عن الترجمة والتعريب فلسنا بحاجة ـ احسب ـ الى الوقوف عندها طويلا أو قصيرا ، وهى من قلم واحد من سادة الادب والفكر وعمالقته المعدودين فى مصر ، ذى سلطان عظيم على لغتى الاصل والنقل معا بل وعلى الثقافتين العربية والغربية على حد سواء وعلى أرفع المستويات . ثم ان أمر هذه الترجمة متروك للقارىء نفسه ، فهى مكافأته الحقيقية ـ كما أثق ـ فى هذه الرحلة الشائقة . وحسبى هنا أن أشهد مخلصا اننى قطعت شوطا كبيرا فى مطالعة النص وأنا أظنه تأليفا ودون أن أفطن الى أنه عمل مترجم ، وهذه ولا شك أكبر شهادة لاى ترجمة ومترجم . فأنت هنا تشعر انك تقرأ لصاحب « القنديل » ، بأسلوبه ، بجمله التاثيرية ووقفاته ولزماته ، بكل خصائصه ونكهته ، كل أولئك فى أمانة وولاء للنص الاجنبى هما أول ما يطلب فى ترجمة . وهناك كما يقال من اذا الفوا ترجموا ، واذا ترجموا الفوا ، ولكنك هنا أبعد ما تكون عن هذا . على العكس تماما ، ستجد التزاما أمينا بالنص حريصا على روح المؤلف ، ولكن دون أن ترتطم قط بتلك التراكيب الفجة أو التشويهات والاهتزازات التى تسقط فيها عبودية الحرفية

الموقع والموضع

والموقع هو ذلك الاطار الجغرافى الكبير الذى تحـددده العلائق المكانية العريضة والقيم الاقليمية النسبية التى تتعدى كثيرا جدا الحدود المحلية للمدينة وقد تصل الى أبعاد قارية برمتها . لذا فهو فكرة متغيرة على العصور ، وبالتالى فقليل من المواقع ما يعد خالدا فى التاريخ . أما الموضع فهو بكل بساطة الرقعة المحلية التى تقوم عليهـا الكتلة المبنية مباشرة ، وهو لا يتغير الا بزوال جسم المدينة ذاته وانتقالها الى رقعة اخرى

والقاهرة تحتل موقعا فريدا فى مصر وخارج مصر . ففى اطار التقاء الدلتا بالصعيد ، فى عقدة الوادى وصرته ، موقع حتمى خالد ظلت العواصم تدور فيه ، قد تنتقل من موضع الى موضع ، ولكنها لا تخرج عنه الا فى فترات عابرة ــ وربما قيل شاذة ــ فى التاريخ القومى ، مثله فى هذا مثـل خاصرة الرافدين فى العراق حيث تتابعت العواصم ابتداء من بابل الى قطيسفون الى بغداد ، ومثل تونس على راس البلد وعلى خاصرة البحـر المتوسط حيث تنـاسلت أو تناسخت قرطاجنه وتنس وتونس

فموقع القاهرة اذن هو خاصرة مصر ، منجمع الوادى والفرعين ، وملتقى الصحراوين ، كانما القطر كله على ميعاد فيه . ولذا تحركت فيه العاصمة عبر العصور ولكن دون أن تخرج عن مجاله المغناطيسى . فمن منف الفرعونية (فى منطقة البدرشين حاليا) الى أون أو هليوبوليس (عين شمس ومصر الجديدة الان) الى بابليون (مصر القديمة) الى الفسطاط العربية ثم الى العسكر والقطائع الطولونية حتى القاهرة الفاطمية ــ كل أولئك حلقات متباينـة فى سلسلة جغرافية أو نسل اقليمى واحد اساسا

واذا كانت العاصمة قد عرفت اطارا اقليميا مختلفا ومتطوحا اكثر من مرة ، كطيبة (الاقصر) فى الجنوب الاقصى ، وافاريس قاعدة الهكسوس فى شرق الدلتا ، والاسكندرية البطلمية الرومانية ، فانما كانت الاولى فى المرحلة التكوينية للدولة المصرية ، وكانت الثانية انحرافة غزو أجنبى بحت ، بينما اتت الثالثة انحرافة استعمارية لامبراطورية بحرية على الجانب الاخر من المتوسط ، وظلت حينا اشبه بجزيرة غريبة من الارخبيل اليونانى نقلت والصقت بالساحل المصرى سياسيا وبشريا

والانتقال من منف الى الفسطاط يمثل نقطة انتقال هامة فى التوجيه الطبيعى والسياسى : فهو انتقال من الضفة الغربية الى الشرقية ، ويشير الى أن منف ، التى كانت سهلة الاتصال بالدلتا مثلما كانت أسهل اتصالا بالصعيد (حيث المعمور الزراعى يقع فى سواده الاعظم على ضفته الغربية) ، كانت عموما أدنى الى التوجيه المصرى المحلى ..

أما الفسطاط فكانت أكثر اتفاقا مع توجيه الفتح العربى الجديد ، الذى هو نحو الخارج اولا وبرى الطابع ثانيا ، وذلك بعد ان أمر الخليفة عمر على قائده عمرو « الا يجعل بينه وبين المسلمين ماء » ، فاختار موضع الفسطاط بدلا من الاسكندرية ومن الجيزة كما كان البعض قد اقترح عليه . ومن هنا اصبحت الفسطاط فى موضع أشبه بالكوفة والبصرة فى العراق ، كلها ترسم مروحة حول رأس الجزيرة العربية ، وكل منها يقع على نهاية واد صحراوى يخرج منها أو قربها وينتهى الى ماء نهر كبير ولكن اساسا دون أن تعبره

من هناك أيضا بدأت الجيزة تلعب دور رأس الجسر

أمام الفسطاط ـ لاحظ اشتقاق الاسم من الاجتياز والمجاز ـ اى همزة الوصل بين العاصمة والصعيد ، وورثت بذلك ظل منف ـ الظل فقط ـ ولذا ظلت دائما وحتى بدايات قرننا هذا حلة صغيرة مجمدة . وفى هذا الدور كانت جزيرة الروضة اشبه بنصف جسر طبيعى بين الجيزة والفسطاط ، يكمله عادة نصف اخر معلق من السفن الثابتة ..

ومن الضرورى هنا ان نذكر ان موضع الفسطاط فيما هو اليوم نهاية مجمع القاهرة المدنى جنوبا انما يمثل ما كان فى حينه اضيق ـ واسهل ـ عبور للنهر بين ضفتيه ، فى عصر كان النهر يمثل عقبة مواصلات لا يستهان بها . ذلك ان شاطىء النيل الشرقى لم يكن يتبع حده الحالى ، بل كان يبدأ من قرب مكان الفسطاط ثم ينحرف بشدة نحو الشمال الشرقى الى قلب القاهرة الحالى فى الشمال ، بحيث كان الثلث أو المثلثات العربى من الرقعة الحالية تقريبا ماء وجزءا من مجرى النيل .

ومعنى هذا ايضا ان الضفة الشرقية لم تكن بمثل اتساعها الحالى ، بل كانت اقل مساحة ، والمثلث الغربى منها يمثل اضافة لليابس تكونت بالتدريج عبر القرون نتيجة لارسابات النهر الطميية ، بينما اخذ النهر نفسه يتراجع نحو الغرب بانتظام ، وهذه هى الحركة التاريخية التى تعرف بهجرة مجرى النيل نحو الغرب . اما تلك الارض التى انحسر عنها النهر فلم تكن ناضجة فيزيوغرافيا على الفور ، وانما ظلت مواطىء رطبة تملؤها البحيرات والخلجان والمضاحل ولا تصلح للسكنى والتعمير الا بعد قرون من الارساب والنضج والصلابة . فمثلا لم تظهر منطقة الازبكية كارض صلبة الا منذ الفاطمية ، ومنطقة

باب اللوق الا منذ الايوبية

وعند هذا الحد ، يمكننا ان نكون تصورا عريضـــا لموضع منطقة القاهرة عامة . فالضفة الشرقية تحدها سلاسل تلال تقترب من النهر فى الجنوب وتنفرج بعيـدا عنه كلما اتجهنا شمالا هى جبل المقطم الـذى ينتهى فى الشمال بالجبل الاحمر قرب العباسية . وحواف هذه السلسلة تتراوح بين ١٠٠ متر فى الجنوب ، ٨٠ مترا فى الشمال . وتخرج من السلسلة عدة بروزات ناتئة نحـو الغرب كتلول ثانوية هى من الجنوب الى الشمال تلول عين الصيرة ثم زينهم فقطع المرأة

فاذا عرفنا ان شاطىء النيل هنا يقـع عمـوما على منسوب نحو ٢٠ مترا ، أدركنا أن الضفة الشرقية ،التى تتسع كالمروحة شمالا وتضيق جنوبا ، ينحدر سطحهـا كلما اتجهنا من الصحراء الى النهـــر ، اى ان القطاع الشرقى منها مرتفع والغربى منخفض (كلمة بولاق مثلا أصلها بلاق وتعنى لغة « الارض المنخفضـــة) ، بمثل ما أن الشرقى أقدم جدا فى تكونه بينما الغربى أحدث ويزداد حداثة كلما اقتربنا من النهر

وعلى العكس من هذا الضـــفة الغربية ، فليس ثمة حائط تلى ، بل تمتـــد الارض الزراعية حتى هامش الصحراء ،والارض تنحدر لا نحو النهر بل نحو الصحراء، ولكنه انحدار طفيف جدا لا يقدر الا بالبوصات حيث يصل فى الضفة الشرقية الى عشرات الامتار ، الا انه مع ذلك واضح للعيان كما يمكن للناظر ان يرى من فـوق كوبرى الزمالك تجاه ميت عقبة

وترتيبا على ذلك كله ، فان ارض الضفة الغـــربية سهلية منبسطة بعامة وكلها كانت أرضا زراعية ، بينما

الشرقية منحدرة تصلها نهايات الاودية الصحراويةوالتلية التى تعرف السيول الشتوية المفاجئة والتى يعرفها اكثر سكان الاحياء الشرقية كالعباسية والجمالية حين تتحول شوارعهم المائلة الى خنادق مائية مؤقتة . وبينما تمتد شوارع الضفة الغربية (باستثناء طريق الهرم) كطرق مسطحة موحدة المستوى ، ينفرد القطاع الشرقى من الضفة الشرقية بظاهرة الشوارع السلمية حيث تتحول الى درج حقيقى يذكرنا بشوارع المدن الجبلية فى أوربا وبخاصة حوض البحر المتوسط

أخيرا وعموما ، كيف تبدو قيمة موضع القاهرة اذا وضعت فى الميزان ؟ ثمة مزايا لاشك واضحة . فالضفة الشرقية محمية من ثلاث جهات بالنهر والتل ، وهى مفتوحة من الشمال فقط . ثم ان وجود التلال الشرقية يوفر للمدينة مادة بناء ثمينة من الحجر ، مثلما يوفر لها النهر خامة الطوب . وارتفاع القطاع الشرقى يعوض عن البعد عن النهر بجفاف الهواء الصحى وحركته النشطة المنشطة ، فى حين يتمتع القطاع الغربى بجبهة مائية منعشة ومرطبة . وأخيرا فان كثرة الجزر كثرة غير عادية فى المنطقة ــ كنتيجة لتغير مستوى الارساب فجأة مع الانتقال من الوادى الضيق الى الدلتا الواسعة ــ هذه الكثرة توفر قواعد هامة لعبور النهر ولنمو المدينة

نمو القاهرة بين ضوابطه ومحاوره

فى هذا الاطار الطبيعى الملائم اذن نستطيع أن نتتبع حركة المدينة التاريخية منذ العصر العربى . حين نشأت الفسطاط فى أقصى الجنوب ، قرب النهر والتل معا ، فانما كانت مدينة حربية اساسا ، تنشد موضع حماية معلقا على التل ومحصنا بالطبيعة . فكانت فى النتيجة مدينة

اكروبوليس ، أى مدينة قمة تل . (ومن الطريف ، وهو بالتأكيد أكثر من صدفة ، ان ديزموند ستيوارت مؤلف هذا الكتاب يذهب الى حد تشبيه جامع ابن طولون على جبله بالبارثينون على الاكروبول فى اثينا !) وحين بنيت العسكر الى الشمال الشرقى منها ، ثم القطائع على جبل يشكر فى نفس الاتجاه ، واخيرا القاهرة المعزية التى بدأت

كمدينة ملكية محرمة ، فانها لم تغير تلك الصفةالاكروبولية العسكرية اساسا ، فكانت جميعها تلتزم السفوح التلية العالية فى الشرق ، وكانت تعززها بخط دفاع وحماية آخر هو أسوار المدينة المتعددة والمتعاقبة . وكل ما حدث انها كانت تزحف من موضع جنوبى الى موضع أكثر شمالية

ومن الطريف ، ما دمنا قد تحدثنا عن المدينة المسورة وسور المدينة ، أن نلاحظ اولا ان مصر فى هذا الصدد شذوذ عالمى نادر ، وثانيا أن القاهرة بدورها شذوذ نادر فى مصر نفسها .. ففى العصور الوسطى وعهد الاقطاع ، كانت المدينة المسورة هى القاعدة العالمية طلبا للحماية من الاخطار الخارجية والصراعات الاقطاعية الداخلية . ولكن حالات ثلاث فقط فى العالم لم تكد تعرف أسوار المدن بفضل حمايتها الجغرافية الطبيعية وتصفية النظام الاقطاعى منذ وقت مبكر : تلك هى بريطانيا واليابان ومصر ،

وكلها جزر حقيقة او مجازا على ضلوع قارة يفصلها عنها بحر الماء او بحر الرمل . لقد كانت الصحراء ــ كما يعبر لويس ممفورد ــ هى السور الطبيعى لمصر . ولكنها لم تكن كذلك للقاهرة تماما . فقد كانت العاصمة بموقعها واهميتها

موطن الخطر الخارجى دائما والصراع الداخلى كذلك ، فكان السور ضرورة استراتيجية منذ البداية وتعددت أسوارها وتحصيناتها واتسعت مع نمو المدينة ، وذلك

حين لم تعرف المدن الاقليميه المصرية السور أو الحائط عدا بعض الموانى الثغور

هذا عن نمو المدينة فى حضن التلال • وفى المراحـــل اللاحقة فقط بدأ يضاف الى التوسع نحو الشمال ، توسع فى اتجاه جديد نحو الغرب • فمع نمو الارض الطميية ونضجها الفيزيوغرافى على حساب النهر المتراجع غربا ، بدأ الاستثمار الزراعى ثم البنائى العمرانى يزحف غربا • لقد بدأت المدينة تنزل هابطة من الكنتـــورات العالية الى الكنتورات المنخفضة بالتدريج • وبعد أن كانت تتشبث

بضلوع التل ورأسه وتخشى الاقتراب من النهر حيث خطر الفيضان والاستبحار أو كما لو كانت تخجل منه river-shy أخذت تتحول من مدينة أكروبوليس معلقة الى مدينـــة نهرية شاطئية مستوية • لقد تحررت المدينة من عقـــال الجبل واسار السور معا وفى نفس الوقت

وفى المحصلة ، فلقد اخذت رقعة العمران والمنطقـــة المبنية تنمو فى اتجاهين لا فى اتجاه واحد ، شـــمالا وغربا ، أو قل على محور شمالى غربى عموما • وتلك هى الحركة التاريخية الاساسية والمفتاح فى نمو القـــاهرة ، وهى حركة مطردة وايقاع ثابت ، مهما توقفت المدينة أو انتكست فى مراحل الجمود أو الانكماش

وحتى أيام الحملة الفرنسية ومحمـد على كان خـــط الحسينية ـ باب الشعرية ـ بولاق يمثل أقصى حـــدود امتداد المدينة شمالا ، دون أن يعنى هذا بالضرورة أن كل ما الى الجنوب كان عمرانا كاملا وسكنى متصلة ، بل كانت هناك فجوات شاسعة تتخلل المنطقة المبنية ، ودون ان يعنى كذلك انعدام العمران المبعثر الخفيف الى الشمال ولقد كان محمد على هو الذى اخترق ذلك الحد وتعداه

شمالا ،نحو شبرا ، كما كان عباس هو الذى بدأ العباسية عبر الحسينية. ومع ذلك فقدكان محمد على نفسه هو الذى بدأ الاتجاه الى جاردن سيتي لتكون سكنا راقيا لعائلاته ، بينما أن حى الاسماعيلية لم يبدأ الا أيام اسماعيل والتوفيقية ايام توفيق

وبالمثل فان النمو الاساسى فى نطاق مثل الفجالة ـ الظاهر ـ غمرة ـ السكاكينى ، أى جنوب خط المترو ومحطة مصر ، لم يتم حقيقة الا بعد ١٩٠٠ . وأحدث من ذلك كله بالطبع نمو الشمال الشرقى ابتداء من الدمرداش ومنشية الصدر عبر القبة بأقسامها ومنشية البكرى حيث يتفرع الى شعبتين : الى الزيتون فالحلمية فالمطرية فعين شمس شمالا ، والى مصر الجديدة جنوبا . وهذا يصدق أيضا على نمو الشمال ابتداء من روض الفرج الى الساحل وشبرا (بأقسامها الحدائق والخيمة والمظلات والبلد)

ونفس الشيء يقال عن الضفة الغربية حيث ظلت الجيزة مدينة متواضعة الى بداية القرن الحالى ، وظلت تنمو شمالا ببطء كشريط يزداد سمكا وعمقا ، الى أن دخلت فى موجتها المدية مع وبعد الحرب الاخيرة حتى وصلت عبر الدقى والعجوزة الى امبابة فى عروض تناظر عروض حى الساحل على الضفة الشرقية أو تكاد . وبعد أن كان عمران الجيزة يقع دائما « جنوب » القاهرة ، اصبح يقع « غربها » نصا . وهنا نلاحظ ان نمو الضفة الغربية باستثناء بندر الجيزة هو نمو طارىء حديث جدا اذا قورن بالضفة الشرقية عموما

وهنا لا تتأكد لنا حقيقة واحدة وهى أن النمو كله ـ على الضفتين ـ مندفع نحو الشمال ، وانما تتأكد كذلك حقيقة أخرى لا تقل مغزى وخطرا وهى أن النمو متوقف

تماما الى درجة الشلل فى الجنوب ، وفى الضفتين أيضا على السواء • فلم تتعد مصر القديمة حدودها المزمنة قرب أثر النبى ، وكذلك الجيزة القديمة (البندر) • واذا كانت المعادى وحلوان على الضفة الشرقية تمثلان نموا حديثا وعصريا ، حلوان منذ اسماعيل كمدينة استشفاء ، والمعادى منذ توسعت وتوطدت جالية الاستعمار البريطانى ، فانها تمثل ضواحى منفصلة عن جسم المدينة ولا تنقض القاعدة بقدر ما تؤكدها • وقل الشىء نفسه عن نمو منطقة الهرم حديثا ، فهى أقرب الى النمو الشريطى الخطى على اطراف المدن ribbon development

والخلاصة أن الحدود الجنوبية لجسم القاهرة تمثل الثوابت الاستاتيكية Constants فى حركة المدينة ، حيث تمثل الحدود الشمالية العوامل المتغيرة النامية والدينامية variables وان فى مجرد الفرق فى التسمية بين مصر القديمة فى أقصى الجنوب ومصر الجديدة فى أقصى الشمال لتلخيصا بليغا لكل تاريخ وحركة النمو داخل هذا المجمع المدنى الحافل

على أنه ليس يكفى أن نفسر هذا التناقض بين الشمال والجنوب بحتم الموضع المحلى وحده من اختناقه فى الجنوب وانفساحه السهلى فى الشمال • فلا شك أيضا أن ثروة الدلتا الغنية من زراعة وانتاج ، وانفتاحها بما يقع خلفها من موانى واتصالات خارجية تجارية ، تمثل لا شك قطب جاذبية للعاصمة أقدر على تغذية صناعتها بالخامات وسكانها بالغذاء وأسهل اتصالا وأقدر على التصريف الخارجى • بل قد يمكن أن يقال أن نمو القاهرة شمالا فى لسانيه الاساسيين شمالا وشمالا شرقا هو انعكاس بعيد فى نهاية المطاف لجاذبية الاسكندرية والسويس على الترتيب ..

واذا كان التناقض فى قوة النمو واضحا صارخ الوضوح ما بين الشمال والجنوب ، فهو على الاقل حقيقة مؤكدة ما بين الشرق والغرب أيضا • ففى الشرق حائط المقطم يقف حائلا منذ العصور الوسطى يخنق كل امكانيات النمو ، حتى فى الوقت الحالى لا يمثل مشروع مدينة هضبة المقطم أكثر من محاولة رمزية • أما غربا فان المدينة استعمرت النهر نفسه ــ أعنى جزيرتى الجزيرة والروضة ــ ثم عبرته لتجعل من الضفة الغربية شقيقة صغرى للشرقية تناظرها طولا وان دقت عرضا ، ولتجعل من المجمع المدنى كله مدينة ضفتين تمتطى النهر كما يقال à cheval

ومن المحتمل فى المستقبل أن يرجح معدل النمو فى الضفة الغربية معدله فى الضفة الشرقية نسبيا ، لان الاولى هى جبهة ريادة العاصمة الان وطاقة أو كوة رئيسية لتمددها • ويمكن أن نعبر عن هذا بطريقة أخرى فنقول ان دفعة النمو اذا كانت اليوم أقوى نحو المحور الشمالى فقد تتحول فى بضعة عقود الى المحور الغربى • وقد وصل عمق الضفة الغربية اليوم الى بولاق الدكرور فى الجنوب وميت عقبة فى الشمال ، وربما واصل نموه الى الخط الشريانى للسكة الحديدية بين الوجهين

وعند هذا الحد نستطيع أن نرى بسهولة أن المدينة اذ تزحف شمالا فى موجتها المدية العاتية ، وبسرعة العاصفة فى العقود الاخيرة خاصة ، مع ثباتها المطلق أو شبه المطلق فى الجنوب ، فهى انما تنتقل بالتدريج مبتعدة من الصعيد وملتحمة بالدلتا • ان الاصل فى القاهرة ــ عاصمة ــ أنها بموقعها ومصدر سكانها ووظائفها القومية وكضابط ايقاع بين أجزاء الوطن واقاليمه ، تنتمى الى الدلتا بقدر ما تنتمى الى الصعيد • ولكن الواقع المحقق

الان أنها أدخل فى فلك الدلتا وأشد التصاقا بها وزحفا اليها ..

ذلك وكأنما هى تزحف تدريجيا مع رأس الدلتا (التى كانت ازاء منف وقت أن كانت العاصمة الفرعونية) والتى تزحف شمالا باستمرار . أو كأنما هى تزحف مع مصر الحديثة عموما ، حيث يقتصر المعمور فى أقصى جنوب الصعيد (منذ خزان أسوان ولكن بالاخص مع السد العالى) ، ويتمدد فى أقصى شمال الدلتا (مع استصلاح البرارى الذى سيصل بالارض الزراعية قريبا الى سيف البحر) . أو - أخيرا - كأنما هى ترمز الى تناقص وزن الصعيد النسبى فى اقتصاد مصر وعمرانها بالقياس الى الدلتا (الصعيد الان لا يقدم الا ٣٨٪ من عائد الزراعة المصرية) ..

وهذا ما يقودنا الى وجه شبه اخر فى الشكل بين نمو القاهرة الكبرى وامتداد الارض السوداء فى مصر . اذا أنت نظرت الى خريطة القاهرة فلن تخطىء بالتأكيد شكلها الكأسى الخاص ، فهى أولا وأساسا مدينة طولية أكثر منها عرضية ، فبينما يصل امتدادها على المحور الطولى الى نحو ١٣كم ، لا تزيد فى أقصى عرض لها عن ٧كم ، وتقل عن ذلك كثيرا فى المتوسط وقد تصل الى حد الاختناق فى أقصى الجنوب . وبينما يأخذ النيل محورا شماليا جنوبيا بعامة ، ينفرج الخط الواصل بين مصر القديمة ومصر الجديدة الى أقصى حد ممكن . ويلاحظ أن جبهة الزحف شمالا لا تمثل خطا واحدا منتظما ، بل يتقعر فى وسطه لانه يتقدم أساسا فى محورين هما كتلة مصر الجديدة - عين شمس فى الشمال الشرقى وكتلة شبرا - روض الفرج فى الشمال ، هذه بحذاء الصحراء وهذه بحذاء

النيل ، وبين هذين اللســانين برزخ أو خليج عريض من الارض الزراعية

الشكل اذن مروحي بوضوح ، تكمن خلفه ضـوابط الموضع وتضاريسه الاولية ، سواء أخذنا الضفة الشرقية على حدة أو اذا أضفنا اليها الغربية • وهذه اذن مروحة منشورة مفتوحة ، يدها فى الجنوب • وهنا يذكرنا على الفور - وان يكن على تصغير شديد - بشـكل الدلتـا نفسها • وحتى لسانا النمو الشماليان السابق ذكرهما يكملان التشبيه بفرعى دمياط ورشيد ! بل اننـا اذا أضفنا الذيل المبتور من النمو المتقطع على استحياء فى الجنوب عبر المعادى وحلوان كيد قصيرة لمروحة العاصمة، لاقترب الشكل جميعا من هيئة مصر عمـوما حيث يرسم الصعيد يدا طويلة جدا ، ولكنها ليست قوية جدا ، لمروحة الدلتـا • ان عاصـمتنا لا تلخص كيـان مصر البشرى فحسب ، وانما تختزل شكلها الجغرافى أيضا فى بقعـة أو فى كبسولة ••

ماذا اذن عن توسع ونمو القـاهرة الرأسى ، بعد ذلك النمو الافقى الطاغى ؟ معه جنبا الى جنب تقدم بايقـاع متناغم • فتاريخ المدينة لم يكن تمديدا للاطراف فحسب ، بل وتكثيفا للداخل أيضا • ولقد أتى على القاهرة حين من الدهر كانت تتخلل منطقتها المبنية فجـوات وفراغات ضخمة من الخراب أو الخواء ، وحتى أوائل القرن الماضى، كان جسم المدينة مبعثرا مخلخلا غير ملموم ، ولكنه أخـذ يلتئم بالتـدريج • وبينما كانت الاطراف تنمو كفيللات مبعثرة وسط الحقول ، كانت الفيللات فى الوسط تتحول الى عمارات ، والعمارات تتناطح وتتلاحم وتتسابق الى أعلى كالاشجار فى الغابة تتصـارع من أجـل الوصـول الى الشمس • وبين هذا وذاك جميعا توشك المدينة أن تغص

وتختنق ولا تكاد تجد رئة خضراء أو مساحة مكشـوفة • والناظر الى خريطة المنطقة المبنية اليوم فى القاهرة قـد يحسب خطأ أن بها فراغات غير مستغلة كتلك التـلول المتقـدمة فى عـين الصيرة وزينهـم وقطع المرأة فى شرق المدينة . ولكن الحقيقة أن هذه حدود المنطقة المبنيـة هناك ، وانما تفصل بين مدينة الاحياء ومدينة الاموات ، أما المنطقة المبنية فكتلة متصلة لا انقطاع لها

وفى ختام هذا الحديث عن النمو ، لا بد لنا من وقفـة تجيب على سؤال ملح : ما الذى أطلق المدينة من عقالها ، خاصة منذ القرن الماضى ، كمارد خرج من القمقم ؟ لقـد ظلت المدينة الوسيطة تحتل رقعة متواضعة محدودة فى شرق المنطقة ، ولم تخـرج من قوقعتهـا التاريخيـة والجغرافية الا فى أواخر العصور الوسطى — وعلى استحياء ذلك . ثم مع القرن الماضى فقط تمددت تمددا جديدا تماما صوب النهر ، ولم تزل خطاها تتسارع باطراد فى العقود الاولى من هذا القرن ، ولكنها منذ الحرب العالمية الثانية وحدها انفجرت فى موجة مدية حقيقية هى منذ الثـورة أسرع وأعتى منها فى أى وقت مضى • ونحن نستطيع أن نصنف هذه الفترات فى تاريخ حياة المدينة الى مراحـل ثلاث أساسية : الاولى هى المرحلة النووية ، والثانية هى التكوينية ، والاخيرة هى الانفجارية

ولعل رقعة القاهرة قد نمت فى القرن السابق للحرب الثانية أى فى المرحلة التكوينية اكثر مما نمت طوال الالف عام منذ نشأتها العربية أى فى المرحلة النووية ، بينما قد يزيد نموها بسهولة فى مرحلتها الانفجارية فى ربع القرن الاخير عنه طوال القرن الاسبق عليه • لقد خرجت القاهرة عن وصاية الجبل الابوية ، وانساحت من المقطم الى الهرم ،

ومن الصحراء الى الصحراء ، ومن حلوان الى شبرا الخيمة، وبعد أن بدأت بحدود صارمة كالخط الهندسى هى سور المدينـــة أصبحت تتخلل المزروع وتخلخـــله كمدينة بلا حدود • ومن السهل أن نتتبع انعكاس هذا كله رقميـــا فى تعداد السكان ، ولكن يكفى هنـــا أن نذكر أن المدينة التى بدأت مع محمـــد على ربع مليـــون وانتهت معه ثلث مليون ، قد تعدت الان الخمسة ملايين

مرة أخرى : لماذا ، وما هو الزناد الذى أطلق هذا النمو المريد ؟ ثمة على الترتيب عاملان ضابطان أو محركان ، لا يكفى اى منهما وحده تفسـيرا الا لمرحـلة محددة . الاول هو الموضع والثانى هو المواصلات • فمن السهل أن نرى أن النمو فى المرحلة النووية يتفق مع نمو رقعة الموضع تجاه النهر ومع تراجع النهر نحو الغرب بالتدريج • ولكن لا شىء يفسر المرحلة التكوينية ، فضلا بالتاكيـــد عن الانفجارية من بعدها ، الا ثورة المواصلات الحديثة• فحتى محمد على ، كانت الدواب هى وسيلة النقل الاســـاسية داخل المدينة ، والمركب الشراعى وسيلته خارجها • كان نفس الحركة البشرية قصيرا للغاية ، ومعه كان توسـع المدينة قاصرا بالضرورة • ثم بدأت سلسلة تاريخية : من الدواب الى عربات الخيل الى خطوط « سوارس » المنتظمة الى الترام ثم أخيرا السيارة الخاصة والعامة • وحـــدود القاهرة العمرانية فى اى لحظة خلال هـــذه المرحـــلة هى وظيفة لهذه الوسيلة أو تلك

ثم سؤال آخر وأخير ينبثق من سابقه : هذا النمو ، هل هو صحى سليم تماما ؟ أيســير فى انسب خطوطه واتجاهاته الاكثر ترشيدا ؟ لن نقف هنا عنـــد قضية تضخم العاصمة فى جسم البلد حيث بلغت الخمســـة ملايين من ثلاثين مليونا أو يزيد ، ولن نقول « الورم

الاكبر The Great Wen » كمـا قال كوبت Cobbet
عن لندن فى عصر الصناعة . فمن المحتمل جدا ان القاهرة
تعانى من افراط المتروبوليتانية مثلما تعانى مصر نفسها
من افراط السكان بعامة . ولكن لعل أخطـر من هذا
النمو ـ الشيطانى نوعا mushroom ـ ملمح ملح مزمن
قد يحمل شبهة النمو السرطانى ذاته

والاشارة هنا هى يقينا الى توسع الرقعة المبنية على
الارض الزراعية الثمينة فى عالم جغرافى متناه يعانى من
مجاعة ارضية . فكثير من ابناء القاهرة يذكرون ولا شك
فى مدى عمرهم آلاف الافدنة الزراعية فى شبرا والجيزة
(بمعناهما الواسع) وكيف كانت طرق المواصلات والترام
تمضى لأميال وسط مزارع ومشـاتل الفواكه والزهور
والخضروات الكثيفة ، ظلت تتضاءل وتنكمش بالتدريج
وظل بعضها يقاوم كجزر صامدة وسط بحر المبانى .
ولكن هذا كله تحول اليوم الى مبـان كثيفة ونفيت
الزراعة الى آفاق بالغة التطوح والبعد . واذا كان هذا
لا يصدق على لسان النمو فى اتجاه مصر الجديدة فهو
للأسف صادق على شعبته الثانية فى اتجاه عين شمس
حيث لا يحاذى امتـداد العمران حافة المزروع وانما
يترامى عليه ، لا يجاوره بل يجاوزه

ان المدينة تأكل سكانها كما يقال ، ولكنها هنا تأكل
ارضها أيضا ، فهى من قوارض الارض الزراعيـة ،
وبشراهة ذلك . وقد آن أن يكون الرمل للعمران والطين
للزراعة . وفى شمال شرق القاهرة تجاه العباسية ومدينة
نصر ومصر الجديدة محور الرمل الأنسب ، بينمـا قد
يكمن الحل بعد ذلك فى الضواحى المنفصلة فيزيقيا عن
جسم المدينة بحيث تقوم لا فى عرض الوادى وانما على
حافتى الصحراوين ، خاصة على طول مخارج المدينـة

الأساسية فى طريقى الاسكندرية والسويس الصحراويين

شبكة الخطة وشبكة المواصلات

حتى النظرة العابرة الى خريطة القاهرة ، بشبكة شوارعها ومربعاتها السكنية ، لا يمكن أن تخطىء ثلاثة ملامح بارزة فى خطة العاصمة . أولها وجود عنصرين أساسيين يتقاسمان رقعة المدينة : تخطيط ــ او بالأصح لا تخطيط ــ عشوائى تلقائى يمثل النمط العتيق فى المدن بل والقرى المصرية عامة ، ويمثل فى العاصمة مناطق النواة القديمة منها ، وتخطيط هندسى مصمم منتظم فى أشكال مربعة أو مستطيلة أو مضلعة أو دائرية، يمثل بدوره العنصر العصرى « الاوربى » الجديد فى تركيب المدن المصرية الذى أدخل منذ القرن الماضى فقط . وهذه الثنائية الاساسية فى الخطة ترمز بسهولة وبلاغة الى الثنائية الحضارية فى مصر المعاصرة حيث يتعايش القديم والجديد والاصيل والدخيل

الملمح الثانى هو سيادة مساحة التخطيط الهندسى الحديث سيادة حاسمة بالنسبة الى مساحة اللاتخطيط العشوائى القديم . وقد يبدو هذا غريبا نظرا لحداثة عهد التخطيط الهندسى المنتظم ، ولكنه فىالحقيقة يلخص ــ فى نظرة ــ قصة نمو المدينة الحديث حيث وجدنا ان الرقعة الكبرى من كتلة المدينة هى أساسا بنت القرن الاخير والمرحلتين التكوينية والانفجارية فى تاريخها . أضف الى هذا أن كثيرا من عمليات التقويم والتهذيب الهندسى فرضت على رقع واسعة من مناطق التخطيط القديم ، مما يخفف من انتشارها وان لم يخف آثارها

ثالثا ، وأخيرا ، فمن الواضح أن مناطق الخطة العشوائية القديمة تنحصر أساسا فى أطراف المدينة القديمة خاصة فى الشرق والجنوب ، وان وجدت منها

جيوب شاذة فى الشمال أو الوسط . وعلى أية حال ، فان هذا الوضع أوضح جدا فى الضفة الغربية منه فى الشرقية ، حيث يقتصر هناك على أقصى الجنوب بصرامة ويسود التخطيط الهندسى كل الشمال . ويعنى هذا فى نفس الوقت أن القديم يرتبط بالكنتورات الاعلى من المدينة ، بعكس مناطق التخطيط الهندسى الحديث

وهذا الملمح الاخير كله يتفق الى حد كبير مع قانون الخطة فى المدينة المصرية عامة ، حيث نجد دائما كتلة قديمة عشوائية فى القطاع الجنوبى تقوم على ربوة صناعية مرتفعة محدبة كطبق مقلوب ، بينما تترامى تحت أقدامها فى القطاع الشمالى وعلى مستوى الارض الطبيعى رقعة من التخطيط العصرى المنتظم . فالقطاع الجنوبى هو نواة المدينة قبل العصر الحديث ، والشمالى هو النمو الحديث فى القرن الاخير . وتتناسب مساحة كل من القطاعين الى الاخر بحسب خط المدينة من النمو والتضخم فى الفترة الحديثة . أى أنه كلما زاد نمو المدينة ودرجة انفجار هذا النمو ، قلت نسبة مساحة النواة العشوائية القديمة الى مساحة التخطيط الهندسى الحديث ــ والعكس

فى ضوء هذه المؤشرات الاساسية ، يمكننا الان ان نتتبع خطط القاهرة بشىء من تفصيل . ولنبدأ باللاتخطيط القديم . هذا نوع من الخطة البدائية الفطرية التى تظهر تلقائية غير عامدة ، خطة بلا تخطيط كما قد نقول ، تبرز من مجرد تجمع المبانى معا . وهى فى جوهرها خطة القرية المصرية والتى لا تخلو تماما من منطق ، بل ومنطق هندسى ، ولكنه باهت بالغ التقريب . فثمة حول الحلة طريق دائرى ولكنه غير منتظم (داير الناحية) تخرج منه الى قلب المنطقة المبنية عشرات من

الطرق الضيقة والحارات التى تنتهى الى نهايات مسدودة فى قلب البلد ـ اى ازقة مغلقة ـ والتى تتلوى وتتفرع وتتخلل الكتلة المبنية بدرجة او باخرى . والعشوائية بادية لا شك فيها ، ولكن خلفها تكمن جرثومة الخطة المتشععة او الدائرية المتشععة بصورة او باخرى
radio-concentric

وتنتشر هذه الخطة البدائية أكثر ما تنتشر فى القطاع الشرقى والجنوبى من القاهرة شرق النيل ابتداء من بالفعل هى القاهرة القديمة والاحياء التاريخية والتقليدية باب الشعرية والازبكية والظاهر والحسينية فى الشمال، حتى السيدة زينب وطولون والسيدة نفيسة جنوبا ، ثم تعود فتظهر فى مصر القديمة فى اقصى الجنوب . وهذه التى تستمد طابعها من ضيق الأزقة والحوارى المسدودة والتوائها وتعرجها الشديد ، الذى يضاعف منه تضرس الطرق بسبب الموضع التلى وتحولها احيانا الى طرق سليمة ، والذى يضاعف بدوره من كثافة المساكن والسكان ودرجة التزاحم . والكل ينتهى الى تيه لابرنتى من شبكة طرق لا تصلح للمواصلات الحديثة بحال . من هنا كان التهذيب والتقويم بتوسيع وفتح كثير من الحارات والشوارع ، اى بعملية فرض او مزاوجة مفروضة بين اللاتخطيط والتخطيط . والواقع ان هذه العملية واسعة الانتشار فى كل هذا النطاق

ومن طريف المفارقات هنا ان نلاحظ انه بينما تبدو احياء شرق القاهرة ضائعة فى خطتها المضطربة العشوائية ، نجد الى الشرق والجنوب منها توا او وشيكا مساحات من التخطيط الهندسى النظيم الدقيق تغطى رقعة كبيرة من خريطة المدينة . على ان هذه لا ينبغى ان تخدعنا ، فانما هى مدينة الأموات ـ المقابر والجبانات المترامية فى حى الخليفة وفى قايتباى والغفير ـ

التى تقسمها شوارع منتظمة مهندسة وتحمل كما لاحظ ديزموند ستيوارت بدهشة أسماء وأرقاما !

ثم نعود فنقابل توزيع الخطة العشوائية تلك ، مع نفس محاولات التعديل وجراحة التجميل التى يفرضها تنظيم العاصمة ، فى حى بولاق ، حيث يبدو كجزيرة شاذة وسط التخطيط الهندسى . ثم لا نلقاها بعد ذلك الا عبر النهر فى أقصى الجنوب من الضفة الغربية ، أى فى نواة الجيزة القديمة (البندر) حيث تتنافر بوضوح صارخ مع بقية التخطيط الهندسى المنتظم الى الشمال

واذ ننتقل الى التخطيط الهندسى الحديث ، الذى يغطى بقية رقعة العاصمة فيما عدا بعض جزر وأسافين قزمية متفرقة من التخطيط العشوائى على أطراف المدينة هى القرى والعزب السابقة التى اغرقها وابتلعها المد الحديث ، كمنية السيرج وبعض العزب المبعثرة فى شمال شبرا ، وقرى كامبابة وميت عقبة وبولاق الدكرور فى الضفة الغربية ، اذ ننتقل اليه نجد صورة مختلفة تماما ، بسيطة جدا ولكنها بالغة التعقيد جدا . فالمدينة هنا عبارة عن موزايكو لانهائى من وحدات مساحية ذات اشكال هندسية منتظمة تتراوح بين المربع والمستطيل وقليلا ما تجنح الى الدائرة او المضلع . ولكنها دائما خطوط هندسية وزوايا قائمة تتألف من مربعات سكنية مماثلة فى هندسيتها . أما التعقيد فمصدره ان هذه الاشكال المنتظمة القائمة الزوايا لا تتبع فى توجيهها بالنسبة للجهات الاربع الأصلية محورا واحدا باستمرار ، كما هو الحال فى المدينة الامريكية مثلا ، وانما تتبع — حرفيا — عشرات وعشرات من المحاور التى تختلف من رقعة الى أخرى وتستقل بها كل واحدة عن الاخرى

كأنها صفحة الغاز Jig-saw ، ومن هنا قلنا بسيطة ومعقدة فى آن واحد . ولا يستثنى من ذلك الا المعادى وحلوان حيث محور توجيه الخطة المربعة الصارمة موحد بصرامة أكثر فى كل المنطقة المبنية

واذا كانت المحاور القاعدية التى تحكم تلك الرقع الشطرنجية اللامتناهية متنافرة كل التنافر ، فالمهم أنها لم تتحدد اعتباطا ، بل هى من وحى وتوجيه ضابطين أساسيين : النهر ، ذلك الشريان المحورى الذى تطل عليه واجهة كبيرة من المدينة ، والشوارع الرئيسية أى الطرق الشريانية التى تفتح الاحياء وتمثل مفاتيح الحركة فيها وبينها ..

فأما النهر فموجه حاسم وحتمى . فسواء على الضفة الشرقية أو الغربية ، ولكن على الاخيرة بالأخص ، يجرى عدا الكورنيش وبعده شارع رئيسى (ممتطيا ظهر جسر الطراد عادة) يمتد بطول النهر ويحاذيه ، كشارعى الجيزة والقصر العينى على الترتيب . ولما كان للنهر تعرجاته وانحناءاته ، فان ذلك الشارع يتبعها بأمانة . وكذلك تفعل الشوارع الثانوية الموازية الى الداخل . ولما كانت الشوارع العرضية عمودية على الطولية ، فان شبكة الشوارع برمتها تظل تتفاوت وتتغير فى محاور اتجاهاتها الاصلية من قطاع الى آخر بحسب تعرجات النهر الحاكمة

خذ كل الضفة الغربية من الدقى حتى امبابة ، ولن تجد لهذه القاعدة تبديلا . وكذلك الشرقية جنوب ميدان التحرير وبعمق سكة حديد حلوان : الشوارع الطولية تحاذى النهر ، والعرضية تتعامد عليه وعليها . وبالمثل فى جزيرة الروضة ، حيث توازى الشوارع الطولية

شاطئى الجزيرة الاثنين ، حتى اذا ضاقت الجزيرة فى الجنوب تبعت الخطة محور احد الشاطئين دون الاخر ، فتتكون شرائح مثلثة شاذة . ونفس الشيء واضح فى فم الخليج وأبو السعود شمال مصر القديمة ، مثلما هو فى الشمال فى روض الفرج والساحل عموما

أما عن أثر الشوارع الرئيسية على الخطة فأوضح فى الداخل ، بعيدا عن أثر النهر . فهذه تصبح العمود الفقرى الذى تركب عليه — بزوايا قوائم — تفاصيل الخطة الهندسية ، فاذا انحرف العمود انحرفت معه واتجهت بحسب توجيهه . أما مسارات تلك الشرايين فتحددها المواقع النسبية بين النقط الاستراتيجية فى المدينة ، أو ربما ضوابط الموضع القديمة كالترع الحفرية التى ردمت وتحولت الى بوليفارات وجادات رئيسية كالخليج المصرى (شارع بورسعيد الان) والترعة البولاقية (شارع الترعة البولاقية)

والأمثلة عديدة . ففى شبرا محور مستقيم هو شارع شبرا ، ومحور منحرف هو شارع الترعة البولاقية ، وكل تفاصيل الخطة المربعة فى الحى برمته تعكس اتجاه كل منهما . ولكن المثل الكلاسيكى هو شمال شرق القاهرة ابتداء من غمرة والظاهر حتى مصر الجديدة وعين شمس ، حيث المحور الحاكم هو مترو خط الضواحى . ففى كل هذا النطاق المترامى ستجد خطط الشوارع كلها مربعات منتظمة ، ولكن على عديد من المحاور المتنافرة جدا . غير أن هذه جميعا انما تتحدد بدورها بنقط ارتكازها أو قل مفاصل ارتكازها على طريق المترو ، الذى ينحنى ويتعرج بحسب مساره ووجهته . والنتيجة أن منطقة مثل غمرة تأخذ مربعاتها السكنية محورا يوشك أن يكون شرقيا غربيا ، بينما أن منطقة كالمطرية وعين شمس ينقلب فيها

المحور الى شمالى جنوبى ، فى حين يتعدل فيما بينهما بالتدريج كالبندول

هذا ، وتمثل الزمالك ـ النصف الشمالى من الجزيرة ـ حالة طريفة ، ففيها يجتمع أثر النهر والشارع ليدمغا الخطة بطابع فذ . فالشوارع الطولية تتبع محور الشارع الرئيسى الحاكم الذى يقطع الجزيرة بين كوبرى ٢٦ يوليو (ابو العلا) وكوبرى الزمالك ، وبذلك تتقاطع الشوارع الطولية والعرضية بزوايا حادة لتترك بينهما اشكالا هندسية نادرة كالمعين وشبه المنحرف ... الخ ، بينما الى الجنوب من شارع الكوبريين تسود شبكة مربعات منتظمة تتوازى معه وتتعامد عليه نصا

وينبغى أخيرا ان نذكر نمطا خاصا ومحليا من التخطيط الهندسى ، لا يتبع مبدأ الزوايا القائمة بقدر ما يتبع الدوائر المتقاطعة والأقواس المتداخلة . ونعنى بهذا خطة الحدائق الانجليزية English Gardens ، التى تنحدر أصلا عن فن تخطيط البساتين landscape gardening ففى جاردن سيتى وحدائق القبة نجد خطط الشوارع كأقواس منحنية أو كدوائر متقاطعة متعددة المراكز . وبقدر ما تعطى هذه من منظور معمارى فخم ومبان انسيابية فى لاندسكيب الحى ، تعطى من مشاكل المواصلات . فهاتان المنطقتان متاهتان من أشق قطاعات العاصمة لسكانهما ولغير سكانهما على ما نعلم

واذا نظرنا الى مناطق التخطيط الهندسى فى العاصمة بعامة ، أمكننا أن ندرك من تعدد محاور توجيه قطاعاتها المحلية أنها لم تخطط أو تنشأ فى ظل خطة عظمى موحدة بل أتت بالقطاعى مع النمو الجزئى . ولهذا فهى تترابط وتتماسك مع بعضها البعض بطريقة رديئة مفككة غالبا ،

والأغلب أن تترك فيما بينها مساحات وجذاذات شاذة الشكل أو حادة الزوايا .

وصحيح أن هذا التعدد والتنافر فى محاور التوجيه يخفف من تنميط الخطة ورتابة الاحياء والشوارع ، كما يعنى تعدد التوجيه بالنسبة للشمس وللرياح فيعطى فرصا أكثر للتهوية والاشعاع والظل ، كما يمنع تحول المدينة الى تيارات للرياح الشمالية السائدة مثلا . ولكن نقطة الضعف الكبرى أنه يترك ترابط المدينة العضوى عن طريق المواصلات ضعيفا مفككا . وينم عن هذا ويشى به محاولات موضعية هنا وهناك لفرض مجموعة من الشوارع المتشععة على بعض تلك الخطط الهندسية المربعة ، تتحول بها الى شيء أشبه بالخطط الدائرية المتشععة أو قل المضلعة المتشععة ، كما فى الاسماعيلية فى وسط البلد وكما فى وسط الروضة وفى العجوزة ثم السكاكينى بالظاهر ، ولكن بالأخص فى مصر الجديدة

غير أن هذا غالبا ترقيع موضعى أو تحايل محلى ، ومن المحقق أن القاهرة نمت بالقطاعى ولصقت أجزاء خطتها الى بعضها بالتقسيط وبلا اطار عام . فاذا أضفنا الى ذلك مشكلة المناطق العشوائية المختنقة ، مع ضخامة رقعة العاصمة عموما ، لكان حقا أن يقال ان القاهرة من المدن التى يصعب التعرف على أجزائها والحركة فيها . ولكن هذا أدخل فى باب المواصلات ، وهو ما ينقلنا الى شبكة النقل العاصمية

***

رغم بعض الشوارع الرئيسية التى تحاول أن تصحح أخطاء الخطة المربعة المتعددة المحاور وأخطاء اللاتخطيط العشوائى ، الا أننا لا نستطيع أن نتحدث عن خطة فوقية

متشععة على مستوى العاصمة ككل . وهناك اكثر من بؤرة تتشعع منها مجموعات من الشوارع الرئيسية هى التى تتبناها خطوط المواصلات شبكة مفضلة لها . ولعل أهمها محطة مصر حيث تخرج منها شرايين شارع شبرا شمالا ، وبولاق غربا ، والجلاء جنوبا بغرب ، الجمهورية جنوبا (ابراهيم سابقا) ، ثم شـارع رمسيس بوابة

وعنق زجاجة كل ضواحى شمال شرق القاهرة . وتقدم العتبة بؤرة اخرى ، فميدانها مصب لحركة شرق المدينة: شارع الجيش الى العباسية ، شارع الموسكى ـ جوهر الى الجمالية ، شارع الازهر الى الفورية والدراسة ، شارع القلعة الى القلعة والخليفة . وميدان باب اللوق والسيدة زينب بؤر اخرى

على أن هذه الحزم المتشععة لا تؤلف فيما بينها خطة متشععة بمعنى الكلمة ، ولو أن الملاحظ ان شبكة خطوط الترام كانت تقليديا وحتى قريب تنتخب لها من الشوارع ما يرسم خطة متشععة بارزة ، لا سيما من مركزين هما ميدانا محطة مصر والسيدة زينب

وعدا هـــذا فينبغى أن نلاحظ أثر مواقع الكبارى النهرية على تقنيل شبكة المواصلات . فعلى جانبى النهر فى كل من كوبرى التحرير وكوبرى الجلاء يتحدد موقع حزمة كثيفة من محاور الحركة والنقل ، بل ان كلا من هذين الميدانين يشكل فى الواقع بوابة ضفته الحقيقية على النهر . ومثل هذا يقال عن كوبرى ٢٦ يوليو والزمالك فى الشمال ، وكوبرى الجيزة والملك الصالح فى الجنوب ، بدرجات متفاوتات . والحقيقة أن مواقع هذه الكبارى المتناظرة والمترابطة ، التى هى أعناق الزجاجة الحاسمة والخانقة بين ضفتى النهر ، هى التى تحدد معظم الشرايين

العرضية التي تقطع المدينة من طرف الى طرف ، والتى تعانى القاهرة من قلتها بوضوح

ولأن القاهرة مدينة طولية أكثر منها عرضية ، فان اهم محاور وشرايين الحركة هى الشمالية الجنوبية التى تخترق بالضرورة قلب المدينة فيختنق بها . وهذا هو المحرك الاساسى خلف فكرة انشاء طريق دائرى يلف بأطراف المدينة دون أن يخترق قلبها ، كما يتمثل فى شارع بورسعيد ، أطول شوارع القاهرة الان ، والذى يرتبط اساسا بشرق المدينة القديم ، وكذلك شارع صلاح سالم الذى شق حديثا

من كل هذه الزوايا يتضح لنا بجلاء أن مشكلة المواصلات فى العاصمة لا انفصال لها عن مورفولوجيتها وهيئتها الجغرافية البحتة . ويقف فى مقدمة هذه الضوابط الجغرافية اثنان . أولا ، انشطار المدينة الى شقين أو ضفتين ، الأمر الذى يجعل على الفور من كبارى النهر أخطر نقط استراتيجية حرجة فى تدفق الرحلة اليومية الى العمل . ثانيا ، اتخاذ أطراف المدينة الشمالية شكل لسانين أو مثلثين ضخمين فى شبرا ــ روض الفرج وفى مصر الجديدة ــ عين شمس ، يتصلان بجسم المدينة فى أضيق رؤوسهما ، اى بأعناق زجاجة مختنقة على التو . وهذا النمط بارز جدا فى الحالة الاخيرة خاصة حيث تبدو كمثلث مسحوب مدبب يكاد أن يكون منفصلا الا من عنق دقيق عند كوبرى القبة . فى كل هذه المواقع بنوعيها ، كبارى النهر واعناق الضواحى ، تتأزم مشكلة المواصلات الى حد الاختناق

على أن الذى يضاعف منها أن كل تلك الاطراف فى الضفة الغربية عموما وفى شمال الضفة الشرقية هى

باستثناءات معينة أحياء سكن أكثر منها أحياء عمل .
ثم هى تتضاعف مرة أخرى كالربح المركب بطبيعة هذه
الاحياء . فان كانت شعبية لا تملك كثافة السيارات
الخاصة ، فهناك كثافة السكان العالية التى تنعكس على
وتترجم الى كثافة السيارات العامة (لسان كتلة شبرا
ـ روض الفرج) . وان كانت سكنا راقيا اقل كثافة
سكان ، فهناك كثافة السيارات الخاصة (لسان
الشمال الشرقى ، والضفة الغربية)

ـ ولا تقل شبكة الخطوط الحديدية داخل المدينة
مغزى وخطرا عن شبكة النقل الأخف . ويمكن ابتداء
أن نزعم ان محطات السكك الحديدية فى المدينة المعاصرة
هى بمثابة بوابات مدينة العصور الوسطى وانما انتقلت
من السور الهامش الى الوسط . انها « مداخل » المدينة
ولكن فى الداخل . ولعلها أكثر من صدفة أسماء « باب »
الحديد ، و « باب » اللوق ، كانما تلح لتذكرنا بأنها
وظيفة وان لم تكن موقعا وريثة «باب» زويلة أو «باب»
النصر مثلا ..

ومواقع محطات السكة الحديدية فى القاهرة استراتيجية
تماما ، فمحطة مصر (وكوبرى الليمون التابعة) ومحطة
باب اللوق تحتل مفاتيح المدينة الجغرافية ، وتخرج منها
الخطوط القومية أو خطوط الضواحى فى اتجاهات ثلاثة ،
شمالا وشمالا شرقا وجنوبا

ومهم أن نلاحظ أن كلا منها يضاعف بمحطة مركزية
كالخلية العارمة لشبكات الاوتوبيس ، فهى أقطاب
مغنطيسية للمواصلات عموما ونقط انقطاع وتغيير فى

وسيلة المواصلات (من السيارة الى القطار أو العكس) . غير أن هذا مما يفاقم من مشكلة الازدحام ، بمثل ما أن خطوطها الحديدية تمزج نسيج المدينة وتخلق اختناقات حادة فى تدفق حركة المرور كما يتبلور خاصة على طول خط مترو شمال شرق القاهرة

وقد انعكس تأزم مشكلة محطات السكك الحديدية فى المدينة فى أن التكامل والتعايش بين القطار والسيارة تحول أخيرا الى صراع انتصر فيه القطار فى محطة مصر حيث نقلت محطة أوتوبيسات الاقاليم بعيدا الى أطراف المدينة فى شبرا المظلات بعد معركة تخطيطية محتدمة بين عوامل الطرد والجذب المركزية . أما فى محطة باب اللوق فيبدو أن القطار هو الذى سيخسر الحرب ، اذ تقرر مبدئيا فى مشروع خطوط الانفاق المزمع أن تنقل نهاية خط الضواحى جنوبا الى كوبرى الملك الصالح

من كل هذه الخيوط المعقدة اذن تنسج مشكلة المواصلات أخطبوطها الخانق المزمن فى العاصمة التى يئست نهائيا من الحلول السطحية ـ أعنى على سطح الارض ـ فلجأت الى الحلول تحت الارضية كما تتمثل فى فكرة مترو الانفاق الذى يعكس مشروع خطته المبدئية شكل المدينة الطولى أساسا . الا أن جذور المشكلة تكمن فى أكثر من قضية ، منها الفارق الحضارى : فشوارع المدينة خططت فى عصر ـ ولعصر ـ ما قبل السيارة وما قبل الصناعة ، وهى الان تعانى بالضرورة من تصلب الشرايين واحتقان الدورة الدموية

ولقد اثبتت تجربة العواصم الكبرى المماثلة ان خطوط الأنفاق ليست بالضرورة الكلمة الاخيرة فى القضية ، ولا تلبث مشكلة المواصلات السطحية أن تعود . فلندن

وباريس تملكان خطوط انفاقهما منذ عقود وعقود ، وكذلك نيويورك ، ومشكلة المواصلات السطحية لم تزل مزمنة . ولعل بعض الدرس المستفاد هو أن القاهرة الكبرى بحاجة حقيقية ـ مع أو قبل الأنفاق ـ الى عملية « هسمنة Haussmannisation » ، كما تسمى ، على غرار ما عرفت باريس فى السبعينات الماضية ، جريئة واسعة الخيال دون أن تكون راديكالية بتارة بالضرورة ، فتفرض على ارضية خطتها الفسيفسائية نظاما متشعا ، متعدد البؤرات ـ منعا لتركيز المشكلة فى نقطة واحدة ـ من البوليفارات المحورية الشريانية ذات التوقيع الاستراتيجى بحيث تتحول هيدرولوجية النقل فى قلب المدينة الى نهر قليل الروافد كثير المصاب

كذلك لا مفر من اعادة توزيع العمل والسكن فى محيط القاهرة الكبرى . فتركيز العمل فى القلب التجارى المركزى (C.B.D. كما يسميه الامريكيون) وغيابه الى حد بعيد فى الاحياء السكنية فى الاطراف عامل جذرى وقاعدى . ولعل من الضرورى أن يتحول قلب المدينة نفسه هو الاخر الى نهر قليل الروافد كثير المصاب ، بخلق نويات جديدة فى الاطراف كمراكز ثانوية subcentralisation ، تخفف الضغط عن القلب المركزى وبالتالى تخفف من كثافة الرحلة الى العمل

التركيب الوظيفى

المدينة أى مدينة حزمة من الوظائف فى التحليل الاخير ، وليست المؤسسات والمبانى الا اوعية مادية لتلك الوظائف المركزية .. غير ان هذه لا تتعايش معا الا بعد صراع على المكان ، فالوظائف تتنافس فيما بينها على الموقع والموقع الممتاز او الأنسب من وجهة نظرها ،

وتحصل عليه الوظيفة الأقدر التى تدفع أكثر . ولما كانت قيم الارض والعقارات والايجارات أعلى ما تكون فى قلب المدينة الضيق المكتظ ، فان وظائف المدينة تتنضد (أى تتفنط) تلقائيا بالتفاعل والشد والجذب بين مجموعة من القوى الطاردة المركزية centrifugal تطرد الأضعف الى أطراف المدينة ، وبين مجموعة من القوى الجاذبة المركزية centripetal تجذب الأقوى الى القلب ..

والوظائف مجموعتان عريضتان : وظائف عمل وانتاج كالتجارة والادارة والصناعة ، ووظائف خدمات كالتعليم والدين والصحة والترفيه . غير أن بين المجموعتين حلقة وصل هامة هى السكن . والسكن وظيفة بالمعنى الصحيح لا شك ، بل هو الوظيفة التى تغطى أكبر رقعة من مساحة أى مدينة فى العادة . ومصدر أهميتها أنها المفتاح والمدخل الطبيعى لوظائف الخدمات ، فهى غالبا الاطار الذى تدور فيه وتتشكل به قليلا أو كثيرا . ومع ذلك فالسكن وظيفة من نوع خاص جدا ، ربما قلنا وظيفة سالبة تمييزا لها عن الوظائف الموجبة من انتاج أو خدمات . ولهذا فلعل من الخير لنا أن نعالجه على حدة بحسبانه طبوغرافية المدينة الاجتماعية ، حيث تمثل الوظائف الموجبة طبوغرافيتها الاقتصادية

***

وفى القاهرة ، اذا بدأنا بالوظيفة التجارية التى تلعب دورا حيويا فى كيانها كعاصمة قومية فضلا عن كونها مدينة كبرى ، امكننا أن نميز بين ثلاثة أنواع من التجارة تمثل فى الحقيقة ثلاث درجات من المركزية . فهناك أولا التجارة المركزية التى تتكدس وتتزاحم بلا هوادة فى قلب

المدينة . ويلمس القاهرى نبض التجـــارة المركزية فى مدينته بالتدريج من مشارف شارع الجلاء ورمسيس حتى أطراف ميدان التحرير وباب اللوق من ناحية ، ومن شارع الجمهورية الى العتبة من ناحية اخرى ، ، حتى الموسكى وما وراءه تجاه الغورية وشارع الازهر .. الخ . ففى هذه الدائرة تتقاطر تجارة التجزئة والجمـــلة ، السلعية والمالية ، الحديثة العصرية والقديمة الوطنية . هنا كل مراكز المؤسسات والشركات الهامة والجمعيات التعاونية والتأمين والبنوك الرئيسية والصيارف والمحال التجارية الضخمة التى تتجاذب حولها المحلات الصغيرة . وهذه المنطقة التجارية تمثل الجهـــاز العصبى المركزى للوظيفة التجارية لسكان العاصمة واقليم العاصمة جميعا

من أخص خصائص هذه المنطقة أن تجارة الجملة ، الأقل اتصالا بالجمهور المباشر والتى تحتاج الى مساحات أوسع ، تنزوى نوعا الى أطرافها الهامشية تاركة عين المنطقة لتجارة التجزئة وتكتفى هى بأن تقف خلفهـــا لتغذيها وتخدمهـــا . اما التجزئة فتعيش على الموقع الاستراتيجى البارز والدعاية المكثفة وتتعامل مع الجمهور مباشرة وقد يكفيها موطىء قدم صغير ولكنـــه حساس وباهظ الثمن أو الايجار . فشارع الجلاء ورمسيس تجاه محطـــة مصر وتجاه التحرير فى منطقة معروف تسودهما مخازن الجملة خاصة من قطع غيار السيارات والأطارات والادوات الكهربية . وفى اركان ميدان الفلكى تتركز تجارة اطارات السيارات . وفى مداخل شـــارع القلعة كما فى الفجالة تتركز تجـــارة الورق والوراقين وأدوات الكتابة . وشارع الجمهورية تجاه المحطة تكثر فيه محلات التحف القديمة والانتيكات .. الخ . وكل

هذه شوارع قل أن يرتادها الجمهور اليومى العريض ، وهى اكثر هدوءا نسبيا من شوارع مثل ٢٦ يوليو وطلعت حرب وعدلى وقصر النيل وما يجاورها ويتفرع عنها حيث لا نجد الا تجارة التجزئة الكثيفة المضطرمة بالحيـــاة والحركة . وبينما يظهر التخصص فى خط واحد بحسب الشوارع أو المناطق فى حالة تجارة الجملة ، يغلب على تجارة التجزئة الطابع المختلط عموما ، والذى يصل الى مداه فى المحلات الكبرى المنوعة multiple stores مثـــل شيكوريل وهانو وجاتينيو .. الخ ، وتلتصق وثيقا بعين المنطقة نصا

من أهم الخصائص بعد هذا ، الفصل الجغرافى بين محلات التجارة المصرية والقديمة التى تختلف أيضا فى روادها ، فالاولى أكثر ارتباطا بجمهور العاصمة نفسها أولا وبطبقاته الاكثر غنى ثانيا ، بينما يكثر فى زبائن الاخيرة أبناء اقليم المدينة من الريف المجاور أو البعيد الى جانب الطبقات القاهرية الشعبية . فالقطاع الغربى من منطقتنا تستأثر به التجارة المصرية ، بينما تتراجع القديمة الى القطاع الشرقى ابتداء من العتبة تقريبا . فهنا تســود المحلات الشعبية والتقليـــدية ويتحول الســوق الى « سويقات » ، وقد يخرج من المحل الى الرصيف ومن الرصيف الى المتجول . كذلك يكثر التخصص بالشوارع ويزداد دور الجملة ، كما نرى فى محــــلات المصنوعات الجلدية والاحذية والصينى على نواصى العتبة ، وكتجارة الذهب والصياغة فى الموسكي والصاغة ، والاقمشـــة الخشنة وغزل الانوال الريفية فى شارع الأزهر ، والعطارة فى الغورية ... الخ

تلك هى تجارة القاهرة المركزية ، التى يتعدى اشعاعها

حدود العاصمة ، ولكنها مع ذلك لا تحتكر كل نشاطها . فهناك التجارة الثانوية أو المراكز الثانوية أو تجارة الاحياء التى تظهر فى مفارق الطرق الاستراتيجية فى أغلب الاحياء كنسخ مصغرة محلية ـ كأنها الاقمار فى فلك شمس ـ من منطقة التجارة المركزية ، التى تخرج منها كالاشعة فى الواقع السنة ممتدة على طول الشوارع الرئيسية فى المدينة تحتل المحلات التجارية جوانبها وواجهاتها ، حتى اذا تجمعت فى مفارق الطرق بعيدا عن قلب المدينة برزت من تلاحمها وتكاثفها تلك المراكز الثانوية التى تخدم الاحياء

ومع ذلك تبقى الدرجة الثالثة من التجارة ، وهى آلاف المحلات الصغيرة المبعثرة فى كل شوارع أو زوايا ونواصى الجيزة والاحياء السكنية ، والتى يتحدد توزيعها عادة بحسب كثافة السكان ، مثلما يتحدد مستواها بحسب الحالة الطبقية . وعادة ما تمثل هذه مشكلة فى مناطق الهوامش والاطراف من المدينة حديثة النمو كالعجوزة الان، فظهورها يتخلف عن ظهور السكن الجديد او لا يظهر منها أولا الا محلات الضروريات كالبقالة والتموين ، وتظل المنطقة خاما تعانى من نقص الخدمة التجارية حتى تزداد كثافة السكان وتتداعى سائر الخدمات التجارية الاكثر رقيا وترفيها

***

من الوظيفة التجارية ننتقل منطقيا الى الادارية . فكعاصمة سياسية ، لها شهرة تقليدية بمركزية بيروقراطية ثقيلة ، تلعب الادارة دورا هاما فى حياة القاهرة . ويكفى أن أكثر من ثلث هيئة موظفى الدولة يتركز فيها . والوظيفة الادارية تتداعى مؤسساتها

بالطبع ، وتميل الى التجمع الجغرافى ، كما انها تحتاج الى موقع مركزى دون أن يكون بالضرورة فى صميم القلب المزدحم الصاخب

من هنا ، وعلى ضلوع منطقة التجارة المركزية ناحية الجنوب والجنوب الغربى ، تمتـــد رقعة دولة الادارة وتتتابع أجهزتها كأنها قشلاقات جيش الموظفين . فابتداء من ميدان التحرير ، الذى يقف مجمعه الشاهق ليعلن كنصب تذكارى عن حدود تلك الدولة ، وفيما بين شارع القصر العينى وخط حديد حلوان ، يمتد لنحو الميل حتى الوزارات والبرلمان بلا انقطاع ، ككتلة بالجملة أو كحجر واحد . بل وتطفو خارجها طفوح النمو والربح المركب ، حتى تصل عبر ميدان لاظوغلى الى ميـــدان الجمهورية حيث كانت قاعدة الحكم طويلا

ويلاحظ أنه يرتبط بهـــذه الكتلة ارتبـاطا صميما ومباشرا ، وظيفيا وجغرافيا ، شريحة مميزة بكاملها على الجانب الاخر من شارع القصر العينى من الســـفارات والقنصليات ، تتمثل فى قصر الدوبارة وجاردن سيتى التى تتصل بها مبانى الخارجيـــة والجامعة العربيـــة المترابطة أيضا . هنا دولة السلك الســياسى الاجنبى الذى يحتاج الى ان يتعامل مبـــاشرة وفورا مع دولة الموظفين المجاورة . وقديما ، وفى العصر الاستعمارى ، فلعل الكلمة الدارجة « ما بين لاظوغلى وقصر الدوبارة » كانت تعبر عن علاقة أكثر من عابرة . على أن هـــذه الشريحة انما ترتبط بالوظيفة الادارية السياسية ارتباطا جزئيا ، ولكنها أساسا منطقة سكنية وليست من القلب الادارى

***

العاصمة بعد هذا هى عاصمة الصناعة المصرية أيضا ،

ففيها أكبر حشد للصناعة فى البلد . واذا كانت الصناعة الحديثة طفرة جديدة نسبيا فى وظائف القاهرة ، فهى منذ القدم مركز تليد للصناعة القديمة والمحليـــة التى تراجعت الان كثيرا جدا فى أهميتها لتترك الصـــدارة المطلقة للأولى . وهذه التفرقة هى نفسها مفتاحنـــا للتمييز وظيفيا وجغرافيا بين الصناعة الخفيفة والثقيلة، بين الصناعات البسيطة واليدوية والصغيرة والتقليـدية وبين الصناعات الحديثة والمعقدة والالية . فالصـــناعة الثقيلة ليس لها مكان الا على أطراف المدينة ، أما الخفيفة بكل أنواعها فتقوم فى داخلها ولكن بعيدا عن قلبهـــا التجارى

على اننا هنا نستعمل الثقيلة والخفيفة اســـتعمالا نسبيا خاصا فيه قدر من تجاوز . فلعل من الخير ومن المقبول لاغراضنا وفى اطار المدينة المحلى الضيق ان نطلق الاولى على الصناعات الاكثر اهمية وحجما أو وزنا فى اقتصاد او لاندسيب المدينة ، والثانية على الاقل خطرا ومقياسا أو ثقلا . وهذا مع العلم بأنه لا صناعة ثقيلة بالمعنى الصحيح فى القاهرة الا صناعة الحديد والصلب فى حلوان

فمن الخفيفة نجد خلية قديمة من الورش والمصـــانع الصغيرة والمعامل التقليدية فى بولاق والسبتية ، ترتبط غالبا بالحدادة والسمكرة وتصليح وتجميع الالات والمراكب ووابورات السكة الحديدية ، وتعتمد أحيانا على الخردة التى لها سوق تقليدية فيها (وكالة البلح) ، كما تعمل فى الصباغة والنسيج على نطاق صغير لعله امتـداد أو بقايا لنشاط واسع عرفته المنطقة فى القرن الماضى أيام محمد على حين استمدت « المبيضة » اسمها من صناعة تبييض الاقمشة

وعلى الجانب الاخر الشرقى من المدينة خلف الموسكى والغورية وباب الخلق حتى السيدة زينب ، فى الجمالية والدرب الاحمر ، منطقة أخرى واسعة تنتشر فيها ورش الحرفيين والصناعات الصغيرة المتنوعة التقليديةوالحديثة التى تتراوح بين معامل الغزل المتوسطة وصناعات الاغذية وتعليب الفواكه وفابريقات تعبئة المياه الغازية والزجاج والنجارة والمصنوعات الجلدية والحياكة والتطريز والطباعة والتجليد وسائر الصناعات الاستهلاكية . ومن هذه الوحدات ما يقوم فى بنايات انشئت خصيصا للصناعة ، أو فى شقق أو بدرومات المساكن العادية ، وبعضها لايخضع للمواصفات والمقاييس الدقيقة للصناعة ، وبعضها نصف آلى نصف يدوى ، ومنها ماينتج لحساب الجملة وما ينتج للزبائن الافراد من الجمهور ..

ومعنى هذا أن هذه الصناعات الخفيفة ، التى لاتحتاج الى رؤوس أموال أو عمال أو خامات ضخمة أو مساحات شاسعة ، ويمكن لمضايقاتها من ضوضاء ونفايات أو روائح أن تحتمل نسبيا ، هى وظيفة تختلط بالوظيفة السكنية وليست منعزلة عنها . ولكنها من الناحية الاخرى لا يمكن أن تقوم ــ وما قامت هنا ــ الا فى تضاعيف أحياء سكنية فقيرة أو شعبية ، ووجودها نفسه بين ظهرانيها واحد من عوامل خفض درجتها السكنية ، غير أنها فى النهاية من أهم مصادر الدخل والعمل للسكان ، فمن بين صفوفهم تستمد كل قوتها العاملة

وأخيرا فان تركز هذه الصناعات المتنوعة هنا بكثافة ملموسة هو فى الحقيقة استمرار لتوطن صناعى تقليدى قديم هنا . ففى هذه القطاعات العتيقة من شرق المدينة

كان القلب الصـــناعى للقاهرة الوسيطة ، بتنظيماتها ونقاباتها واسطواتها . وصناعاتها اليوم تستمد بعضـا من مسحة وخصائص صناعات الأمس ، اما متطورة أو متدهورة نوعا ، وان كانت لا تبدى التخصص الجغرافى الذى كان يسود قديما حين كانت كل صـناعة ــ على طريقة العصور الوسطى ــ ترتبط بشوارع أو حارات معينة لا زالت مقروءة حتى اليوم فى الاسماء وان زالت من اللاندسكيب . من هذه الاسماء ــ التى لم تعد اسما على مسمى بالضرورة ــ السروجية والسيوفية وسوق السلاح حول القلعة ، ثم المغربلين والكحكيين والفحامين والنحاسين ... الخ

فاذا انتقلنا الان الى الصـــناعة الثقيلة (تجاوزا او نسبيا) ، التى هى أحدث جدا من الناحية التاريخية ، فانما ننتقل من وسط جسم المدينة الى أقاصى أطرافها والهوامش . فالصناعة الثقيـلة وظيفة هامشية جـدا بالضرورة ، تقذف بها عوامل الطرد المركزية الى حواف المجمع ، بل على انفصال فيزيقى عنه ان أمكن ، بينما لاتجد هى نفسها اى فائدة أو منطق فى السعى الى داخله

واذا كانت هذه الصناعات حديثة تاريخيـا وعصرية تكنولوجيا ، فثمة قبلها بعض خطوط قديمة بدائيـــة ومحلية بالضرورة تبدى على قلة أهميتها تركزات جغرافية صارمة بل وترتبط حتى بمعطيات الموضع نفسه وتنعزل بصرامة عن جسم المدينة . ولعل المثل الكلاسيكى هو صناعة التحجير والجير والطوب . فمحاجر القـــاهرة وجياراتها مركزة كلها بالضرورة فى الجنوب الشرقى فى جبل المقطم أساسا ، حيث تتتابع عشرات وعشرات منها فى نطاق واضح ، ينحصر بين كنتورى ١٠٠ ــ ٨٠ مترا

فى الشرق ، ٦٥ ـ ٣٥ مترا فى الغرب ، ويمتد من مشارف الجبل الأحمر حتى نهاية الخليفة ، كما يتناثر عدد منها فى تلول عين الصيرة وبطن البقرة غير بعيد عن مصر القديمة التى تعرف نشاطا هاما فى صناعة وتجارة الجير والجبس . وليس من الصدفة أن كثيرا من مبانى شرق القاهرة هى من الحجر أكثر منها من الطوب . وعلى النقيض تماما من المحاجر التى ترتبط بالجبل ، ترتبط القمائن وصناعة الطوب بالجزر النيلية وطميها . فجزيرة الذهب غابة من المضارب ، وهى المورد الاول للعاصمة

وما دمنا هنا فى دائرة المحاجر ، فقد يمكن أن نمضى منطقيا الى الجنوب ، الى طرة والمعصرة ، لنجد استمرارا وظيفيا ، ولكن مع انقطاع جغرافى جزئى وتكنولوجى تام ، للصناعة المرتبطة بالمحاجر . فمنذ أوائل القرن قامت هنا وحدات عصرية ، وعلى أضخم نطاق لصناعة الأسمنت والجير ، طفرت فى العقود والسنين الاخيرة لتصبح أعظم صرح فى هذا الخط لا على مستوى الجمهورية وانما على مستوى القارة ، يغطى انتاجه الاستهلاك القومى ويجد فائضا هاما للتصدير . والوحدتان ، اللتان تستوعبان بضعة الاف من الايدى العاملة واللتان تعدان بمقياسهما وطبيعة منتجاتهما من اثقل الصناعات ، هما فى الحقيقة مستعمرتان ضخمتان من التخصص المطلق بالضرورة الحتمية ، منفصلتان جغرافيا عن جسم العاصمة تماما ، ولكنهما تدخلان فى صميم وشقوق كل نسيج فيه

غير أننا فى الحقيقة اذا قلنا الصناعة الثقيلة فقد قلنا شبرا فى الشمال ، وحلوان فى الجنوب . هاتان قطبا الصناعة الثقيلة ، وأعظم منطقتين صناعيتين منفردتين فى مصر عموما ، وتبلغ قيمة راس المال الذى وضع

فى صرح كل منهما الان بضعة مئات من الملايين من الجنيهات

والقطب الشمالى أقدمهما ، بدأ بمضاربات الرأسمالية والبورجوازية الاجنبية والمتمصرة والمصرية ابان الحرب الثانية للكسب الاستغلالى السريع والصريح فى صناعات الغزل والنسيج والتريكو والجوارب خاصة والقطنية اساسا ، فى مصانع متهالكة وفى خطة عشوائية وفى ظروف عمالية سيئة . ولكن النواة التى بدأت منفصلة جغرافيا فى شبرا الخيمة نمت قبل التأميم ثم طفرت بعده حتى توسعت زحفا : الى الشمال حتى تخطت حدود القليوبية وضواحى مصر ، والى الجنوب عبر شبرا المظلات وشبرا البلد حتى شارفت حدائق شبرا والتحمت بالسكن وتداخلت فيه . كما انتقلت بعد ذلك من القطنيات الى الصوفيات والحريريات والبلاستيك والنايلون ، كما نمت لنفسها صناعات تكميلية مساعدة من المعدنيات والاطارات .. الخ ، لتؤلف منطقة صناعية منوعة ومتكاملة أفقيا وراسيا بمعنى الكلمة

وبقوة هذا القطب الصناعى ، انبثقت أخيرا نويات صناعية أحدث على طول الترعة الاسماعيلية وشارع بور سعيد ، زحفت حتى مسطرد ، وترتبط بصناعات تعبئة الغاز والكاوتشوك ... الخ . ومن قبل قفزت حول ذلك القطب مستعمرات عمالية غير مخططة ومدن العشش والصفيح لا زالت دون المستوى كثيرا وتمثل خلية من التزاحم الخطير ، تجمع فى محيطها بضع مئات من الآلاف من العمال وأسراتهم

هذا ، وقد ظهرت لهذه المنطقة الصناعية الأم نوية حديثة متواضعة وزنا وحجما ولكنها تناظرها عبر النهر فى شمال الضفة الغربية فى امبابة ، تدور أساسا حول

النسيج والصناعات القطنية والتريكو والجـــوارب ، تخلقت حولها هى الاخرى مستعمرة عمالية ـ مدينة العمال بامبابة ـ الا أنها مخططة هندسيا على نمط مستطيل . وقد تقاطرت بجوارها أخيرا محطات القوى والمياه ... الخ

والآن ، ومن وجهة جغرافية المدينة ، فلا شك أن منطق توقيع هذه المناطق الصناعية الغلابة يدعو الى التساؤل . لسببين أساسيين : أولهما انها تقوم فى صميم الارض الزراعية الثمينة ، فهى وان نقلت بالتحول المهنى عشرات الآلاف من الفلاحين الى عمـال فقد عقمت الالاف من اجـود الاراضى ، كما أصبحت نفاياتها مصدر تلوث خطير لمياه المصارف والترع . السبب الثانى أن هـذا الموقع الشمالى يأتى على النقيض تماما من كل منطق التخطيط فى بلد تسوده الرياح الشمالية وتطلب لذاتها كتيار منعش شتاء ملطف صيفا (البحرى) . فهى تلقى بكل دخانها وافرازاتها على سماء المدينة الى الجنوب . ولعل هـذا وحده أن يفسر كيف خفضت القيمة السكنية لتخومها المباشرة ولماذا سادت السكنى المتوسطة والفقيرة وأحياء العمال فى القطاع الشمالى من المدينة هنا فى شبرا وروض الفرج والساحل فى وقت كان يمكن فيه أن يستقطب السكن الراقى باجتماع الواجهة الشمالية مع الجبهة المائية على النيل

غير أنه ما من شك أن الذى يفسر هـذا التوقيع الخاطىء سكنيا هو الميزة الموقعية اقتصاديا . فهنا فى الشمال تتصل العاصمة مباشرة أسهل وأسرع اتصال مع كتلة الدلتا الغنية مصدر خامها وغذائها الاول وممر التصدير والاستيراد الخارجى . لقـد تغلبت مصالح

الانتاج على السكن ، ومصالح صاحب رأس المال (قبل التأميم) على صاحب العقار

واذ ننتقل الى حلوان ـ القطب الجنوبى ـ نجد المسرح مختلفا والقصة أحدث بكثير . فهنا ومنذ عقد تقريبا غزت الصناعة الثقيلة ضاحية خارجية منفصلة ، سكنية سياحية ، ترقد هادئة حول عيونها المعدنية كمدينة من مدن المياه Spa town ، لترتفع الافران العالية الى جانب ينابيعها المعدنية . هذه أول قلعة لصناعة الحديد والصلب ، قاعدة الصناعات جميعا ، بدأت على خام أسوان والنقل النهرى وتتحول الى خام الواحات البحرية والخط الحديدى . ففى أحضان وادى حوف زرعت غابة من المصانع والمداخن والافران تترامى لبضعة أميال وتعمل على خط انتاج واحد كسير متحرك ، لتنتج القضبان والعربات الحديدية والفلنكات والآلات المعدنية وقطع الغيار وأسياخ التسليح ، عدا صناعة السيارات تصنيعا وتجميعا ، وعدا الصناعات الحربية والادوات المنزلية الحديثة ... الخ

والعملية هنا انقلاب عمرانى كامل بقدر ما هى انقلاب اقتصادى . فأمام حلوان الآن نمو سكانى ومدنى ضخم ، ومن المحتمل ان تنمو حتى تتقابل او تتقارب يوما مع حدود كتلة القاهرة المبنية (؟) مثلما دخلت الآن أكثر من أى وقت مضى فى فلكها الاقتصادى . واذا كان التوقيع الصناعى هنا سليما من وجهة مناخ القاهرة ، فان مستقبل مدينة الاستشفاء والعيون يصعب التنبؤ به فى قلب هذه الدوامة الصناعية الثقيلة . ولكن المحقق على اية حال ان ليس ثمة مبرر جغرافى طاغ او واضح

لذلك التوقيع أصلا ، الا أن يكون القرب من مجمع العاصمة ، الامر الذى يعود بنا الى قضية أفراط المتروبوليتانية عموما

من وظائف الانتاج ندلف الى وظائف الخدمات ، وأولها التعليم . وللوظيفة التعليمية فى القاهرة دور خاص ان لم يكن فريدا حقا ، اذ ان جمهورها من الطلبة يقدر بنحو المليون أى خمس السكان ، ولا مفر لذلك من أن تبرز مؤسساتها بالحاح فى لاندسكيب المدينة . والقاعدة الاصولية أن هذه توزيعها الجغرافى يتناسب مع درجتها التعليمية ، بحيث تكاد شبكتها ترسم هيكلا عنقوديا أو شجريا أو هرميا كنظام كريستالر عن توزيع المدن نفسها فى الاقليم . فمدارس الصغار — وهى اساسا خدمات جيرة — اشدها انتشاراوانتشارا ، وتوزيعها سكنى بحت أى يرتبط بالاحياء السكنية . أما المدارس الثانوية فخدمات أحياء أكثر منها خدمات جيرة ضيقة ، وهى لذلك أقل عددا وأكثر تباعدا ، ولكنها سكنية أيضا بالضرورة ..

واذا كان ثمة استثناء للقاعدة فهو الاستثناء الذى يؤكدها ، وهو التعليم الاجنبى . فمدارس الجاليات والارساليات الاجنبية كلها تتقاطر (او كانت) على قلب العاصمة التجارى ، فهى — كروادها — أدنى الى المسحة التجارية وأشبه ان تكون عناصر مقتلعة ، مثال ذلك المدرسة اليونانية والالمانية والفرنسية قرب الفلكى (وربما أضفنا تجاوزا الجامعة الامريكية غير بعيد) ومدرسة الارسالية الامريكية قرب حديقة الازبكية . الخ

أما التعليم العالى فهو وحده الذى يبدى تركزا جغرافيا حاسما أولا ، وانفصالا مطلقا عن السكن

ثانيا ، وارتباطا حتميا بأطراف المدينة ثالثا ، وبأطرافها الحديثة الراقية العصرية رابعا . ذلك أن الجامعة تحتاج الى مساحات شاسعة ـ تتزايد أبدا ـ مثلما تحتاج الى الهدوء المطلق . وهذا يتجسم فى ترامى جامعة القاهرة فى الجيزة الحديثة على مدى ما بين كوبرى الجامعة وكوبرى الجيزة وبعمق كبير ، ثم فى انتشار جامعة عين شمس من الزعفران الى العباسية . وكل منهما ـ يلاحظ ـ على ضلوع العاصمة غربا وشرقا ، كأنهما قطبان الا أنهما قطبان متنافران موقعا مع قطبى الصناعة فى الشمال والجنوب

وتمثل جامعة الازهر توقيعا مختلفا ، فصحيح أنها على ضلوع المدينة بل وفى حضن الجبل من الشرق توا ، ولكنها فى أقدم قطاع فى المدينة . ولكن هذا مفهوم لعراقتها التاريخية الى جانب نوعيتها الدينية . غير أنها تدفع ثمن هذه النشأة وذلك الموقع عجزا عن التوسع المساحى فى وسط ذلك الحى الشعبى المكتظ ، الذى يضفى عليها أيضا جوا وطابعا خاصا . ولهذا فقد بدأت أخيرا تتوسع بمعاهدها ومدنها السكنية تجاه العباسية بعيدا فى مدينة نصر

ومن الطريف هنا أن نلاحظ الاتجاه التاريخى فى الحركة من الجامعات الدينية القديمة الى الجامعات العلمانية الحديثة . فالانتقال الحضارى الذى حدث خلال القرن الاخير من التعليم الدينى التقليدى الى التعليم المدنى العصرى يلخصه ويرمز اليه الانتقال من جامعة الازهر الى جامعة القاهرة ، من أقصى شرق المدينة المرتفعة العتيقة الفقيرة الى أقصى غربها السهلى المحدث الغنى . وأطرف منه أن نلاحظ مرحلة انتقال بينهما ، تتوسط

المدينة عبر هذا القوس جغرافيا واجتماعيا كما تتوسطه تعليميا ، وتتمثل فى مجموعة دار العلوم ومعهد التربية العالى والمعاهد المجاورة والمماثلة فى منطقة المنيرة « وذلك قبل ضمها اخيرا الى الجامعات الحديثة ، حركة بندول كاملة نحو التغريب حضارة ونحو الغرب موقعا !

هذا ، ويختلف التعليم الفنى فى توقيعه ، فهو عادة ـ وبأنواعه المختلفة ـ يرتبط بمواقع المهنة نفسها أو الاحياء المعنية . فعادة تقوم المدارس والمعاهد الصناعية قرب الاحياء الصناعية ، مثلما يتبلور فى سلسلة متراصة من المدارس الفنية الصناعية وورشها فى بولاق ترسانة الصناعة التقليدية قديما (مدارس الصناعات الزخرفية والميكانيكية سابقا ، ورشة القطن .. الخ) . ويمكن فى معنى خـــاص ان نمد هذه القاعدة الى بعض مؤسسات التعليم الجامعى الطبى بحسبان المستشفيات الجـــامعية تعليما وممارسة معا . فمن أدعى الظاهرات لفتا للنظر تلك الكوكبـــة العديدة والمتلاصـــقة من المستشفيات الجامعية لكلية الطب ومعامل الابحاث ، التى تتركز فى شمال الروضة وعلى طول القصر العينى من كوبرى المنيل الى فم الخليج ، والتى تحدد قدرها فيما يبدو منذ بـــدأ القصر العينى ايام كلوت . فهذه الدائرة الملمومة لا يمكن الا ان ترتبط فى الذهن على الفور ، كما هى فى الواقع ، بأكبر تجمع فى الجمهورية للاطباء وللعيادات الطبيـــة فى دائرة باب اللوق وما حولها ، وليس يفصل بينهمـــا الا شارع القصر العينى نفسه

***

ثم ننتقل الى وظيفة تعد ـ عكس التعليمية ـ مناقضة ومضادة للسكنية الى حد كبيـر ، وهى الصـــــحية .

فالمستشفيات بمساحاتها الكبيرة وحاجتها الى الهـــدوء وبأخطار العدوى ، لا مكان لها وسط كتلة السكان عموما واذا كان بوسط القاهرة عدد من المستشفيات المركزية ، فالموقع السائد والمفضل غالبا والمحتم أحيانا هو الاطراف، وربما الاطراف المنعزلة تماما ، وقد نضيف : فى منصرف الرياح كما فى العجوزة ومستشفاها العام الكبير ، وكما فى العبـــاسية حيث مســـتعمرة كاملة من المستشفيات العقلية والحميات والصدرية فضلا عن كورنتينة بيطرية ومعمل السيرم (قارن على العكس مستشفى الحميات فى شمال امبابة)

وترتبط المدافن ، من زاوية معينة ، بالوظيفة الصحية، فتصدق شروطها على توقيعها بصورة أشـــد صرامة . وجنوب شرق القاهرة فى منصرف الرياح ، عاليا على التل المكشوف ، بعيدا عن الطين فى الرمل الجاف ، منفصلا عن جسم المدينة ، هو مدينة الاموات . والواقـــع أن سلسلة الجبانات ، من الغفير شمالا حتى الامام الشافعى جنوبا ، تؤلف نطاقا متصلا تقريبا ينحصر بين نطـــاق المحاجر والجيارات شرقا وبين سلسلة التلول المتقـــدمة غربا « قطع المرأة ، زينهم ، عين الصيرة » التى بدورها تشكل نطاقا متقطعا يعزلها ويعزله عن السكن

ومع ذلك ففى الامام الشـــافعى أخذ الحى يزحف على الميت ويكاد يطارده ، وتداخلت مدينة الاحياء مع مدينـــة الموتى بصورة قابضة للنفوس . واذا كانت مدينة المقابر المقسمة بالشوارع الخطية التى تحمل أســـماء وأرقاما ، تبدو كأنها المدينة السكنية للموتى ، فالطريف أن العزل فيها على الاساس الدينى والجنسى أكثر صرامة بكل تأكيد عنه فى مدينة الاحياء ، فلكل طائفة جباناتها الخاصة المطلقة

تبقى أخيرا بعض وظائف تتشابه مع الصحية فى طبيعتها الهامشية ، الا أنها لا تبدو كذلك دائما فى القاهرة . فالمؤسسات الترفيهية - الرياضية منها - كالملاعب والاندية الكبرى هى بطبيعتها مسرفة فى حاجاتها من المساحة وتختنق بغير الهواء الطلق والاماكن المكشوفة. ولان جمهورها - فى ظل المستوى الحضارى والاجتماعى الراهن - ما زال محصورا غالبا فى الطبقات القادرة ، فهى تجنح عادة الى أن تقع فى القطاعات الراقية من الاطراف . اعتبر مثلا نادى الصيد خلف الدقى ، والزمالك والترسانة فى مداخل العجوزة ، واستاد القاهرة فى مدينة نصر ، ثم نادى سباق الخيل والبولو فى مصر الجديدة .. الخ

ولقد نظن أن هذا يصدق ايضا على ناديى الجزيرة والاهلى اللذين يحتلان نصف الجزيرة الجنوبى ويمثلان معا اكبر رقعة رياضية متصلة فى العاصمة . ولكن الحقيقة أن هذا الموقع أقرب شىء الى قلب المدينة ، وموقعه هنا انما يمثل حالة شاذة من عدم التلاؤم ومن الجمود anachronism من وجهة ديناميات نمو المدن . وهذا نقد قد يثير حساسيات عاطفية عند الكثيرين ، ولكنه يفهم على ضوء الماضى . فقد انشأ الاستعمار البريطانى هذه الحلبة لتكون حكرا ارستقراطيا له أولا ، وحين انشأها فى العقود الاولى من القرن لم تكن الضفة الغربية تتعدى بالكاد بندر الجيزة ، وكان هذا الموقع هو بالفعل أطراف مدينة القاهرة الهامشية . ولكن نمو القاهرة عامة والضفة الغربية خاصة سرعان ما غمره فى مده واحتواه حتى أصبح الان قريبا جدا من قلب المدينة . وهناك ادلة متزايدة على أنه قد بدأ بالفعل يعرقل النمو الطبيعى لهذا القلب ، كما أن تدفق رواده عامل اضطراب موسمى خطير فى مواصلات

العاصمة . والاسوأ من هذا انه يعقم الاستغلال الامثل لرقعة هائلة ذات قيمة عقارية لا تقدر فى موقع ممتاز من المدينة المتفجرة بالنمو . فكل أصابع التخطيط الرشيد تشير اليه اما كمنطقة سكن راق أو كسكن تجارى عالمي (فنادق سياحية الخ) او كخلية ومجمع للقاعات الدولية وصالات المؤتمرات والمعارض العالمية الخ . والمنطق التخطيطى يقضى بأن يهاجر الى الهوامش الجديدة ، مثلا كمنطقة نادى الصيد . أما القول بأن هذا يحرم القاهرة من « رئة » طبيعية أو يضاعف مشكلة كثافة السكان ، فليس ردا ، لان النيل بشعبتيه هنا هو الرئة الطبيعية الكاملة ، والحاجة الى رئة انما تزداد كلما بعدنا عن النهر خاصة في أعماق الضفة الشرقية المكتظة . ثم أن الزمالك والروضة مناطق مبنية ولم تخنق أحدا . وفوق هذا كله ، فما نعرف عاصمة كبرى فى العالم تتوسطها جزر نهرية دون أن تستغلها أكثف وأمثل استغلال عمرانى : مثلا السيتى فى باريس ، مانهاتن فى نيويورك

***

مثل هذا او شيء منه يمكن ان يقال عن الوظيفة الحربية ومؤسساتها فى القاهرة ، فمنذ العصور الوسطى وطوال تاريخ القلعة مثلا ، وللدفاع مدينته الكاملة المطلقة (بثكناتها ومخازنها بل ومصانع سلاحها) التى تقع كلية خارج المدينة وعلى ضلوعها الشرقية ، مصدر الخطر الخارجى الاساسى . (على العكس من هذا تماما فى ظل الاستعمار ، كانت هذه المدينة العسكرية فى صميم قلب المدينة ، قصر النيل ، استجابة لا لاغراض الدفاع الخارجى ولكن لاغراض الاحتلال الداخلى) وانتقال موقع وظيفة الدفاع من جنوب شرق القاهرة (القلعة) الى شمالها.

الشرقى (العباسية ـ القبة) يرمز الى تطور الفن العسكرى
ولا شك أن الموقع الاخير ، الحالى ، هو عنق زجاجة القاهرة ومدخلها الاستراتيجى الاخطر • غير أن القصة هنا تكرر مشكلة تراجع المواقع الهامشية مع نمو المدينة ، فقد احتوى المد العمرانى المدينة العسكرية ـ على ترامى رقعتها ـ الى أن فقدت هامشيتها الشرطية بتجاوز العمران السكنى والمدنى لها شرقا نحو الصحراء • واذا كان هذا عنصر تعويق فى نمو المدينة ، فهو أشد تعويقا للوظيفة الحربية نفسها • ولقد نضجت المشكلة ـ التى واجهتها عواصم أخرى كثيرة ـ بما يسمح باعادة توقيعها ونقلها الى الاطراف الجديدة

الطبوغرافيا الاجتماعية

لا تنفصم الوظيفة السكنية عن فكرة الطبوغرافيا الاجتماعية ، ان لم ترادفها تقريبا • والطبوغرافيا الاجتماعية ـ والمصطلح للمخطط المهندس الفرنسى جاستون بارديه ـ هى أساسا التوزيع الجغرافى للطبقات الاجتماعية على أرضية المدينة • واذا كانت المدينة الاشتراكية كالسوفييتية لا تعرف الا التباين الجغرافى على أساس الانتاج ، بينما تتجانس فيها الاحياء السكنية تماما ، فان طوغرافيتنا الاجتماعية ليست بعد اشتراكية وان كانت لمدينة عاصمة فى دولة تتحول الى الاشتراكية • فنحن هنا ازاء المحصلة التراكمية لتاريخ طويل من الاقطاع والرأسمالية ، ولا مفر لنا لوقت طويل من أن نميز بين الاحياء السكنية على الاساس الطبقى اقتصاديا واجتماعيا • بل ان المسكن مازال هو التعبير المادى الاخير عن الطبقة ، والمنزل هو المنزلة ، والمكان هو المكانة

غير أن الطبوغرافيا الاجتماعية ليست الطبقة وحدها ، بل والجنسية والطائفة أيضا ، أى الاقليات عموما ، وهذه لها مكانها فى عاصمة كوزموبوليتانية كالقاهرة ، وسنجد لها جزرها وأسافينها الجغرافية الخاصة . على ان من الواضح تماما أن وزن الجنسية والطائفة ثانوى وضئيل للغاية بالقياس الى الطبقة ، فهذه وحدها هى أهم المتغيرات وأبرز المعالم فى الطبوغرافيا الاجتماعية لعاصمة قديمة عريقة لشعب موحد متجانس منذ الاف السنين . وهذا على العكس تماما من مدينة كالمدينة الامريكية تمتاز أساسا ، كمدينة بلا تاريخ وكمدينة هجرة ، بالتنافر الاثنولوجى وتعدد الاجناس والقوميات، ويأخذ فيها الجنس بعدا لا يقل خطرا عن الطبقة فى تشكيل مورفولوجيتها الاجتماعية

مع هامش عريض من التبسيط والتعميم ، يمكن ان نحصر الاحياء السكنية الفقيرة فى اقصى جنوب المدينة وأقصى شرقها ثم أقصى شمالها ، مع جزيرة كبيرة فى وسطها . أقصى الجنوب : فى أجزاء من الجيزة البندر ، وأجزاء من مصر القديمة حتى السيدة زينب ، مرورا بأبو السعود والمدابغ والمذبح والبغالة . أقصى الشرق : من الخليفة حتى الحسينية ، مرورا بالقلعة والدرب الاحمر والجمالية . اقصى الشمال : فى اطراف شبرا الخيمة وشبرا البلد والساحل وما حولهما وامتداداتها عبر مسطرد ومهمشة والشماشرجى ، ثم ازاءها فى امبابة . اما جزيرة الوسط فكتلة بولاق والسبتية . وثمة أحيانا جيوب ثانوية على أطراف المنطقة المبنية فى الضفة الغربية من القرى المبتلعة كبولاق الدكرور او مدن العمال مثل بين السرايات

هذه بوضوح هى اما أحياء شعبية قديمة التاريخ ، والمبانى عتيقة الطرز ، بعضها متهالك او آيل للسقوط ، شوارعها بلا تخطيط أو عشوائية الخطة ، ترتفع فيها كثافة المساكن بفضل ازقتها وحواريها الضيقة ، كما ترتفع فيها كثافة السكان وحجم الاسرة . أو هى أحياء عمالية حديثة التاريخ ولكنها منخفضة المستوى ، وقد ترتبط ببعض البورجوازية الصغيرة من صغار الموظفين او الحرفيين . وأوضح من ذلك كله ان السكن يختلط فيها بدرجة أو بأخرى بالصناعة والتجارة كما رأينا . وهى أخيراً وفى اغلبها ، ولكن ليس دائما ، تقوم على الارض المرتفعة ذات الكنتورات العالية

وعلى طرف النقيض ، تتوزع الاحياء السكنية الفنية ، بدرجاتها المتفاوتة ، فى معظم النطاق الاقرب الى النهر من الضفة الغربية شمال الجيزة البندر ، ثم فى الجزء الاكبر من جزيرة الروضة ، ثم فى الجزيرة (الزمالك) ، ثم نعبر الى جاردن سيتى وقصر الدوبارة ، لنقفز بعدها بعيدا الى مصر الجديدة واجزاء كثيرة من الشمال الشرقى ابتداء من القبة . وأبرز ما يجمع بين هذه الاحياء جغرافيا انها باستثناء مصر الجديدة وما حولها تقع فى الاراضى المنخفضة على جبهة النيل

وفى الاعم الاغلب تقتصر هذه الاحياء على السكن ، فان غزتها وظائف اخرى فبعض المؤسسات الادارية كالوزارات او المصالح ، ولكن بوجه أخص البعثات الدبلوماسية ، فهذه تتقاطر على أحياء السكن الراقى ، فنجد أغلب السفارات والمفوضيات والقنصليات تعشش فى جاردن سيتى وقصر الدوبارة فالزمالك فالدقى وحديثا وأخيرا العجوزة . على أن السفارات والهيئات

الديبلوماسية اذا عدت دليلا على السكن الراقي ، فهذا يقتصر على الاحياء السكنية القريبة من قلب البلد نسبيا ، أما المتطوحة منها فتخلو منها ، كمصر الجديدة .

أما اللاندسكيب المدنى السائد هنا فهو العمارات العالية وأحيانا الناطحات الصغيرة ، ودائما فى عمارة عصرية حديثة . أما الفيللات فقليلة لشدة ارتفاع قيمة اراضى البناء على الارض السوداء حيث لابد من الحد الاقصى من الاستغلال بالكثافة الراسية . وهنا نستطيع أن نرى كيف أن « جاردن سيتى » مثلا اسم على غير مسمى ، بل وسخرية من فكرة «الجاردن سيتى» المعروفة فى أوربا منذ هوارد ، فهى غابة من العمارات الضخمة أكثر منها كوكبة من الفيللات فى بحر من الحدائق . ولكن الفيللا تعود فتسود على الرمل فى مصر الجديدة وضواحى الشمال الشرقى حيث تملك ترف الانسياح الافقى

أما السكان ، فهذه هى المحل المختار للطبقات الموجهة والمسيطرة والاكثر دخولا وترفيها وترفا . وقد حدثت هنا منذ الثورة عملية « تتابع سكنى » تغير فيها نوع السكان . فقد كانت هذه هى المواطن المفضلة لسكنى الاقليات الاوربية الاستعمارية ، مثلما كانت المقر الطبيعى للاسر الاقطاعية والراسمالية والصناعيين من الوطنيين . ومع تصفية هذا وذاك ، حلت بالتدريج صفوف من الطبقة الوسطى العليا والمثقفة الوطنية ، مما بدأ يخفف نوعا من حدة تضاريس الطبوغرافيا الاجتماعية فى العاصمة

فيما بين النقيضين ، الاحياء الرقيقة الحال والفنية ، تنتشر أو تنحشر الاحياء المتوسطة التى يتفق انها متوسطة فى الموقع الجغرافى مثلما هى فى الموقع الاجتماعى

والتى تتألف غالبا من الطبقات الوسطى المعتدلة او العادية من الموظفين والمثقفين أو التجار • فعدا الجانب الخلفى من الضفة الغربية ، تغلب فى فم الخليج وتسود فى المنيرة وكل ما حولها وخلفها حتى حدود الاحياء المتواضعة فى شرق المدينة ، ثم تغلب على كل النطاق العرضى الممتد من الفجالة والظاهر وغمرة عبر السكاكينى حتى الوايلى والعباسية ثم فى قطاعات كبيرة من ضواحى الشمال الشرقى . هذا عدا القطاع الاكبر والجنوبى من شبرا وروض الفرج . ومن الملاحظ أن خطوط السكك الحديدية داخل المدينة ، قومية كانت أو ضواحى ، تخترق عادة هذه المناطق السكنية المتوسطة (أو الفقيرة) حيث تخلق على طولها مناطق موبوءة وتخفض قيمتها الاجتماعية

ماذا تعنى هذه الخريطة الاجتماعية ، وهل من مغزى للعلاقات التوزيعية بين الطبقات الثلاث ؟

لعل أبرز ما يلاحظ هو أن مبدأ الفصل السكنى سائد بعامة ، بمعنى أن لكل طبقة منطقة ، ولكل منطقة طبقة . وأهم من ذلك ان الفصل السكنى سلمى ، بمعنى أن الطبقات تتدرج من منطقة الى أخرى كما تتدرج فى السلم الاجتماعى . وبتفسير اوضح فان منطقتى الطبقة الغنية ورقيقة الحال يندر أن تتجاورا متلاصقتين ، بل الاغلب ان تندفع بينهما منطقة طبقة وسطى تفصل بينهما ، كما فى منتصف المدينة على محور جاردن سيتى ــ المنيرة ــ القلعة

وقد تتقارب أو تتواجه هاتان الطبقتان مباشرة ، بل أن هذا احيانا مطلوب لان القوة الضخمة العاملة فى الخدمة الشخصية والمنزلية فى احداهما تستمد من

الاخرى ، ولكن لابد حينئذ من حاجز طبيعى فاصل ، كالنيل بين الزمالك وبولاق حيث يتجسم التباين والتناقض الاجتماعى ويصل الى قمته ، وحيث تصل المسافة الاجتماعية الى أقصاها والمسافة الجغرافية الى أدناها ، أو كما بين الروضة ومصر القديمة على مستوى أكثر اعتدالا ..

اما عن الضوابط الحاكمة والكامنة خلف هذه الصورة، فيمكن ان نتساءل أولا عن عامل القرب أو البعد من قلب المدينة . ففى كثير من المدن الاوربية والامريكية أصبحت مسافة بعد السكن عن القلب مقياسا طرديا للمستوى الاجتماعى والانتماءالطبقى ، كلمازادت أرتفع ، والعكس . ولكن القاهرة لاتحقق هذه القاعدة الا جزئيا (مصر الجديدة ، المعادى ، وكل ضاحية منفصلة او شبه منفصلة) ، وتعارضها أكثر (جاردن سيتى ، والزمالك من ناحية ، وامبابة وشبرا الخيمة ومصر القديمة من ناحية اخرى)

فاذا بحثنا عن احتمال اخر ،كالارض العاليةوالمنخفضة فى المدن الغربية الباردة ، حيث الارض المنخفضة مصايد للضباب والرطوبة ، والارض العاليةصحية جافة ومشرقة، وحيث ـ بالتالى ـ « العالى اجتماعيا هو العالى جغرافيا ، والواطىء اجتماعيا هو الواطىء جغرافيا » ، وجدنا أنفسنا فى القاهرة أزاء قلب رئيسى وأن يكن غير كامل للقاعدة . فشرق المدينة الاعلى تضاريسيا يحمل الاحياء الرقيقة الحال والعمالية والشعبية ، بينما غرب المدينة المنخفض على النيل وفى جزره وعلي ضفته الغربية بحتشد السكن الغني . ولكن يعود فيشذ قطاع كبير فى بولاق والشمال

(شبرا الخيمة وما حولها وامبابة) فهذه كلهـــــا ارض منخفضة واحياء متواضعة

هل هو اذن ضبط الرياح السائدة ؟ فقـــــد لوحظ فى الغرب ان السكن الراقى يسعى الى ان يحتكر غرب المدينة حيث مستقبل الرياح الغربية السائدة ، طازجة غيرملوثة . وفى مصر الحارة ، فليس ثمة شك أن الرياح البحـــــرية السائدة مرغوبة جدا وان لها ثمنا يدفع فى قيم الارض أو الايجار ، وان المدينة الاقليمية المصرية المتوسطة تنجذب احياؤها السكنية الراقية الى الشمال كما تنجذب البوصلة المغنطيسية . ولكننا فى القاهرة تصطدم بشبرا الصناعية وامبابة واحيائها المتواضعة فى أقصى الشمال ، وان كانت مصر الجديدة وضواحى الشمال الشرقى مكشـــــــوفة للرياح « البحرى » منطقة بلا عائق

لا يبقى الا ان تكون جاذبية النهر ، فللجبهة المائيـــــة المنعشة فى مناخ حار ، فضـــــــلا عن المنظر الطبيعى فى اللاندسكيب ، مغنطيسية لا مفر منها على السكن الراقى ، ومن الواضح أن هذا يمثل جـــــزءا كبيرا من الحقيقة فى القاهرة : اعتبر معظم الضفة الغربية ، ثم الجـــزيرتين ، فجاردن سيتى ، ومع ذلك فليس هو كل الحقيقة ، حيث تقع بولاق وامبابة على النهر بينما تقع مصر الجديدة ابعد ما تكون عنه . على أن هذا لا يقلل من أهمية عامل الجبهة المائية ، فحتى داخل منطقة الطبقة الواحدة ، راقية كانت او متوسطة ، يطل على النهر عادة افضل المساكن وتقل درجتها كلما بعدنا عنه .. وفى الضـــــفة الشرقية مثلا ينخفض مستوى السكن كلما بعدنا عن النيل فى انحدار مستمر من الراقى الى المتوسط الى الفقير ، ولا نقــول الى سكن الموتى فى اقصى الشرق !

والخلاصة الصافية ؟ لاشك ان كل هذه العوامل تعمل مجتمعة ولكنها متعارضة جزئيا ، وليس فيها مفتاح احادى . والسبب ان القاهرة مدينة معقدة مركبة بحكم تاريخها الطويل وتنوع ارضيتها كموضع مابين الجبل والنهر وما بين الصحراء والوادى . ولكن من الممكن ان نقول ان ضابط الجبهة المائية فيها اقوى بعامة من عامل الرياح البحرية ، وهذا بدوره اقوى من عامل التضاريس

ذلك اذن وجه المجتمع القاهرى فى بيته الجغرافى او بيئته الطبيعية . غير انه ان حددت الطبقة ملامحه الاساسية ، فان الاقليات تكملها بلمسات نهائية ترصع صفحته دون ان تخرج عن الفرشة القاعدية . ولقدحدثت تغييرات هامة فى العقد الاخير فى حجم وتوزيع الاقليات الأجنبية والجاليات الاوربية نتيجة « للخروج الابيض » مع التحرير ، ولكنها ظلت طويلا قبلها ذات وزن كبير حيث بلغت عدة عشرات من الالاف ، وان قد كانت دائما اقل منها فى الاسكندرية بالذات

ففى مرحلة الاوج فى الثلاثينات والاربعينات ، كانت ابرز حقيقة عن توزيع الاوربيين فى القاهرة تجمعهم فى النصف الشمالى منها ، او بالاحرى غيابهم تماما من النصف الجنوبى . وفى النصف الشمالى كان توزيعهم اقرب الى قلب المدينة ، وكان مركز الثقل فى جاردن سيتى وقصر الدوبارة وفى الاسماعيلية والتوفيقية ، حيث كانت نسبتهم تزيد عن نصف السكان فى كثير من الشياخات . وحول هاتين النواتين ، وعدا الزمالك ، كانت تجمعاتهم تستمر متصلة ابتداء من الفرنساوى حتى باب اللوق ومن غمرة حتى شبرا ، وفى كثير من شياخات هذه الحلقة كانت نسبتهم تتراوح بين نصف وخمس السكان

واهم معانى هـــذا التوزيع هى ، اولا ، ميل طبيعى للاقليات والجـاليات الاجنبية الى التجمع وعدم الانتشار تماما بين الوطنيين . ثانيا ، انجذاب (غير مألون عنـد الوطنيين ولـكنه منطقى للاجانب) نحو قلب المدينة التجارى حيث يربطون بين العمل والسكن او حيث يظهر السكن التجارى (الفنادق والبنسيونات الخ) . ثالثا ، يتبع توزيع الاقليات الاجنبية الاطار الطبقى العام . فكانت العناصر الاكثر غنى ونفوذا منهم ترتبط بالاحياء السكنية الراقية كجاردن سيتى والزمالك ، والعناصر الاقل مكانة بالاحياء البورجوازية المتوسطة ، ولكنها فى جميع الحالات كانت بعيدة تماما عن الاحياء الوطنية الفقيرة . رابعـا ، ارتبطت بعض الجاليات ببعض المناطق تقليديا او بصـفة خاصة : الانجليز بجاردن سيتى والزمالك عدا المعـادى المنفصلة ، واليونانيون والطليان واللفانتيون بمداخل شبرا تجاه المحطة (الشوام فى قصورة الشوام خاصة)

خامسا ، واخيرا ، فرغم بعض ملامح الانعزال النسبى عن الوطنيين ، فلا مجال قط للحـديث عن عزل سكنى صارم بالمعنى المعروف فى العواصم الاستعمارية فى افريقيا او اسيا . بل ان بعضا من العناصر الاقل ثراء من الاوربيين اندمج تماما فى كتلة السكن الوطنى ، ومن الناحية الاخرى لم تظهر قط مدينة اوربية مقفلة بالمعنى الاستعمارى ، وحتى الانجليز رغم السيطرة الاستعمارية وتقـاليد المنجهية الانجلوسكسونية تحايلوا على العزل السـكنى المقنع من خلال الانفصال الجغـرافى الطبيعى حين نموا لانفسهم ضاحية المعادى ولكنهم فشلوا ، وغزتها العناصر الوطنية . وهذا كله يذهب ليؤكد ان الفارق الحضـارى والجنسى بين الاوربيين والمصريين كان دائما على غير ماعرف

الاستعمار فى كثير من بلاد العالم الثالث ، وانه عجز عن أن يخلق فى مصر اى شبهة من « حاجز نونى » ما

اما من الناحية الدينية ، فقد كانت هذه الجاليات الاوربية ذات التركزات غير العادية فى قلب المدينة او قربه تتخذ مؤسساتها الدينية فى ذلك انقلب التجارى او قريبا منه ، وذلك بصورة شاذة غير مألوفة ، وليس فى الاحيـاء السكنية كما هى القاعدة فى مؤسسات الديانات الوطنية . وحتى بعد تصفية هذه الاقليات والجاليات ، فما زالت مؤسساتهم تحتشد فى ذلك الوسط التجارى : مثلا كاتدرائية الانجليز بماسبرو ، كاتدرائية سانجوزيف بعماد الدين ، عديد الكنائس فى باب اللوق والفكى وكنيس الاسرائيليين فى شارع عدلى .. الخ

هيكل العاصمة :
اقاليم القاهرة الكبرى

من المسلم به أن القاهرة ، بتاريخها الالفى العريق ، مدينة ناضجة مورفولوجيا من وجهة جغرافية المدن ، بمعنى انها مرت بمراحل وادوار عديدة من التجربة والخطأ ،واعادة التجربة والتصحيح ، حتى استقرت واستوت خطتها وبنيتها العامة على انسب تنضيدوترتيب ممكن لبيئتها من الداخل

ومن هذه الزاوية ، فالمفروض ان تكشف القاهرة لدارسها بسهولة عن هيكلها الاساسى وعن الخطوط العريضة فى مورفولوجيتها . غير ان الواقع ان القاهره مدينة معقدة نوعا من حيث الموضع الجغرافى الذى يحتويها . فاختناقها بتلال المقطم فى الشرق منع بصرامة

توسعها فى هذا الجانب وفرض على نموها اتجاها أحاديا او قل نصفيا نحو الشمال والغرب او الشمال الغربى ، وبذلك حد من حريتها فى الانطلاق نحو النمط الدائرى وحصرها فى نمط مروحى بالتقريب

ونقول النمط الدائرى لانه ، باستثناءات ليست قليلة الاهمية ومع تحفظات معينة ، فان المدينة أى مدينة حين تترك لنفسها فى بيئة جغرافية سهلية تخلو من العقبات الطبيعية فانها فى الاعم الاغلب تميل بالنظرية الى أن تنمو حول قلبها ، كجذوع الاشجار ، على شكل حلقات متتـــابعة نحو الاطراف ، وتكتسب محيطا دائريا أو شبه ذلك . والسؤال هو : ما النمط ، ما المنطق البنائى القائد او الحاكم الذى يمكن أن نستشفه من خلال وجه القاهرة بملامحه وعناصره ووظائفه وديناميـــاته التى طالعنا وحللنا ؟

واضح أن سلسلة المقطم كانت بمثابة خط القـاعدة الذى ارتكزت عليه القاهرة فى نموها ، وبينما لم يعد اجتيازها للنيل عقبة على الاطلاق ، على الاقل منذ القرن الماضى ، فقد ظل محور المقطم منذ البداية الى اليوم عقبة طبيعية صارمة . ومن الناحية التاريخية ، وعبر العصور الوسطى ، فان أحضان المقطم المبـــاشرة التى نشأت فيها هى بطبيعة الحال « النواة النووية » للمدينة مثلما كانت قلبها المركزى فى مراحل طويلة من حياتها

وقد كان نمط توزيع الوظائف والمبانى والسكان فى مدن العصور الوسطى ، خاصة الاسلامية منها ، بسيطا فى جوهره يتركز ــ كما يلح علينا ديكنسون ــ حـــول السلطان : فكان مقر الحاكم عادة هو قلبها يحيط به قصور الامراء والكبراء ثم التجار ثم العامة وصـــغار

الناس حتى اذا وصلنا الى هوامش المدينة ساد الزراع العاملون فى حقول المدينة وأرباضها

وشيء من هذا توحى به القاهرة العربية الاسلامية . فدائما منذ الفتح العربى وقبل أن تبنى القلعة فى الايوبية ولكن بعدها بصورة أقطع ، كان مقر الحكم لصيقا او يكاد بسفوح المقطم فى الشرق ، ومن حوله كانت تترى أحياء الاعوان والمقربين واهل الحكم ثم كبار التجار والحرفيين ثم العامة ، بينما كانت بطائح وشطوط النيل التى ترصعها المستنقعات والبرك ويهددها خطر الاستبحار من فترة الى اخرى منطقة الزراعات وتموين المدينة ، واحيانا ملاعب ومتنزهات ... الخ

وقد يمكن ان نعبر عن هذا فنيا بأن نقول ان نمط القاهرة العربية المورفولوجى كان حلقيا وانما بالتقريب على شكل نصف دائرة قطرها خط المقطم . وربما أضفنا أن الهيكل العريض لهذه المورفولوجية يذكر — مع كل الفروق الموضوعية والتاريخية بالطبع — بهيكل مدينة شيكاغو المشهور فى دراسات المدن ، حيث يتركز القلب على جبهة بحيرية قاطعة وحيث يأخذ توزيع أقاليم المدينة الحلقية من الداخل نظاما نصفيا وليس دائريا كاملا

ولكن قاهرة اليوم أشد ماتكون تعقيدا بالمقارنة . فمنذ القرن الماضى اخذت المدينة تهجر ظلال المقطم وتزحف نحو النيل ، واخذ كثير من اجهزتها ومؤسساتها ووظائفها الحيوية تصرف بالتدريج من قلبها القديم فى شرق المدينة وتهاجر بانتظام متدفقة نحو الغرب . ولقد بدأت هذه الاعراض مع محمد على ، ولكنها تسارعت بعده منذ اسماعيل خاصة ، ولم تكف منذئذ حتى الان . مقر الحكم ، مثلا ، كان القلعة أيام محمد على ، ولكنه

هو نفسه بدأ بشتل وزرع أجهزة ادارة جديدة وعديدة فى منطقة الازبكية ، الى أن نقل اسماعيل الحكم فيهـــا نهائيا الى عابدين . هذا مجرد مثال دال » ولكن كل تاريخ القاهرة الحديثة انما هو عمليتـــان ايكولوجيتان رئيسيتان : من الخارج نمو وتوسع نحو الشمال والغرب، واعادة توزيع وترتيب لاجهزتها وأنسجتها وأعضـــائها ووظائفها واستعمالات الارض فيها من الداخل

ولاشك ان أبرز المظاهر المؤثرة والملموســة لديناميكا القاهرة ، كما تنبثق من تفــاعل هاتين العمليتين ، هى هجرة القلب التجارى المركزى . وهى نتيجة حتمية . فقلب أى مدينة هو فى الحقيقة « عاصمتها » ، هو فى المدينة كالعاصمة فى الدولة تماما . وكما أن هناك علاقة ايقاع غير منظورة ولكنهــا محققة بين حـــدود الدولة السياسية وبين العاصمة السيــاسية ، ينبضان معــا ويتأرجحان معا ، فكذلك قلب المدينة : يرتبط وثيقــا ويتذبذب حثيثا مع حدود المنطقة المبنية ، كلما اتسعت حدود هذه ، كلما تحتم على القلب ان يتحرك معهــا ليؤمن مركزيته ويحتفظ بتوسطه . هكذا القاهرة : كما نمت حدودها نحو الشمال والغرب أساسا ، نحـــــو الشمال والغرب بالدقة تحرك قلبها

ومن السهل ربما ان نتتبع حركة القلب التاريخية هذه من الازهر والموسكى فى مطالع القرن ، الى العتبة والازبكية بعد ذلك ، الى الاسماعيلية خلال فترة الحرب الثانيـــة وما قبلها . وبمزيد من التحــديد فقد كان كليرجيه فى الثلاثينات يعد عين قلب القاهرة التجارى النابض حــول شارع عماد الدين . ومنذ ما بعد الحرب وصلت الحــركة الى نقطة التقاء شارع ٢٦ يوليو وطلعت حــرب (فؤاد

وسليمان سابقا) ، ومن بعدها انحدر الزحف على طول شارع طلعت حرب وقصر النيل وتجاه ميدان التحرير حتى شارفه ، وحتى اصبح هذا من مراكز قلب القاهره وقطب الجاذبيه فيها ، حيث اخذت المؤسسات والاجهزه والهيئات المختلفة من تجارية ومراكز خدمات وادارات وشركات وفنادق كبرى تتقاطر حوله ، واخذ هو يكتسب صبغة اكثر واكثر تجارية وحركية

وكمقياس اختبار او كرموز لهذه الحركة ، اعتبر هجرة فندق شبرد من الازبكية ، والجامعة العربية من الداخل ، الى النيل ، ثم قيام الهيلتون ، ولا تنس قيام المجمع قبل الجميع . كذلك لاحظ زحف وانتقال منطقه الاضواء Bright Light Area (المسارح ودور السينما واللهو وشرنقة المقاهي والمطاعم الكثيفة التى تغلفها . الخ) من شارع عماد الدين فى الثلاثينات الى شارع طلعت حرب الان ..

لقد تمت دورة بندول كاملة فى حياة المدينة وقلبها ، انتقل فيها من سند الجبل الى شاطىء النهر ، ومن ضلوع المقطم الى ضفاف النيل ، وتلك نتيجة منطقية بالنسبة الى قلب تحولت مدينته من مدينة اكروبوليس الى مدينة فيضية ، ومن موضع منحدر تلى الى موضع يمتطى نهرا ويضع قدما فى ضفه وقدما فى الاخرى حتى اصبح هذا هو محور المدينة الجديد

ولاشك ان هذا الزحف الهادف انما يتم فى جزء كبير منه تحت مغنطيسية وجذب النمو العمرانى الضخم ، والمتفجر اخيرا ، على الضفة الغربية بالذات وحيث ينتظر المزيد من النمو والانسياح . وهو ايضا يحقق النظرية الاصولية من ان القلب يزحف نحو الاحياء السكنية

الراقية . كذلك فانه يدل على ان القلب برقمته المزدحمة الحالية بدأ يكتظ ويضيق بمؤسساته وأجهزته الكثيفة والمكدسة ، بمثل ما ان بعض هذه المؤسسات بدات هى الاخرى تضج وتضيق بضغطه وتسعى الى اطرافه الاكثر هدوءا واتساعا لاغراضها . خذمثلادور الصحافة الكبرى فى القاهرة : تجد منذ مدة هذا الاتجاه الى الابتعاد عن عين القلب الى هوامشه ، ابتداء من قيام دار اخبار اليوم فى شارع الصحافة ، الى انتقال الاهرام اخيرا جدا الى شارع الجلاء . ومن قبل يلاحظ الموقع الهامشى من القلب فى بقية دور الصحف : الجمهورية تجاه الازبكية ، الشعب فى القصر العينى ،الهلال فى المبتديان .. الخ . كذلك مرافق الادارة المركزية ، لم يعد القلب الادارى يتسع للمزيد منها وبدأ يلفظ نموه بعيدا ، وأحيانا خارج القلب تماما ، كوزارة الزراعة بالدقى من قبل ووزارة الاصلاح الزراعى من بعد ، وكعدد اخر من الوزارات والمصالح والمؤسسات الحكومية

هذا ، واذا كان لنا أن نحدس المستقبل من مؤشرات الحاضر ، فان ضغط القلب من اجل المكان سيفرض نفسه قريبا حين يصطدم بالنيل ومن ورائه خاصة ملاعب الجزيرة التى هى حقيقة استغلال سيىء ومسرف لموقع محورى والتى قد تحبط حركته وتعوق نموه الطبيعى ، ولكنه صراع وظيفى لا يمكن ان تكون الغلبة فيه الا للقلب فى النهاية . وقد لا يكون قيام فندق عالمى تجارى ضخم – شيراتون او سفنكس (؟) – على رأس الدقى السكنى فى قفزة ضفدعية ضخمة وشاذة ، بلا مغزى ودلالة على هذا الاحباط الذى تفرضه تلك الملاعب مؤقتا

كذلك فان كتلة بولاق الضخمة والفقيرة المتاخمة ، التى تبدو اليوم ناضجة تماما لجراحة كبرى فى ازالة العشش،

هي بالقوة الاحتياطي والرصيد الطبيعي لتوسع القلب في بعض جوانبه في المستقبل . وهي قد بدأت بالفعل تتلقى او تستثمر وقع بعض فروعه وامتداداته على طول كورنيش النيل في ماسبيرو (مبنى الاذاعة والتليفزيون مثلا .. الخ)

هذا عن حركة القلب غربا ، والمهم والسؤال الآن : ما الذي حدث للمنطقة التي هاجر وانحسر عنها القلب بالتدريج ؟ انها ببساطة ــ ولكن ببسالة ، اذ ان المقاومة تستمر عقودا ــ تفقد بالتدريج أجهزة وعناصر التجارة والنشاط التجاري التي هي مقومات القلب وصفته الاساسية . فالقلة من محلاتها ومؤسساتها الاكثر طموحا والاقدر على التكيف الحديث تغادره الى القلب الجديد كلية او قد تتخذ لنفسها فيه فروعا عصرية ، والكثرة تذوي وتذبل بالتدريج ويتضاءل روادها ودخلها وربما ظلت تقاوم اعتمادا على ولاء جمهور واسع الدائرة ولكنه بسيط الحاجات متواضع الطلبات والقدرات ، وقد تتحول الى مخازن وموردين للجملة او متاجر محلية للحي او حتى للجيرة ، وفي نهاية الدورة قد تصفى اعمالها فاذا بمبانيها ومنشآتها تتحول الى استعمالات جديدة ، سكنية اساسا ، او قد تعدل لتستقبل ورشا صناعية صغيرة لبعض الحرفيين او المموّلين .. الخ . وبعبارة اخرى ، تتحول المنطقة التي تراجع عنها القلب القديم الى مجرد اطراف وهوامش او رقع من جسم المدينة العادي بحلقاته الوظيفية المألوفة خارج القلب كالحلقة الخارجية او الحلقة الداخلية كما تسمى

وعلى الفور فان هذه العملية تضع ايدينا على ظاهرة فذة فريدة تختلف بها القاهرة عن المدينة الدائرية الكاملة ،

وتعد قلبا للعملية الشائعة فى ديناميــــات ونمو اقاليم وحلقات المدينة الداخلية . فالقاعدة مع نمو المدينة أن يتوسع القلب بالزحف على الحلقة الداخلية المحيطة به ، فتتحول وظائفها من خليط من السكن والصناعة الخفيفة عادة الى التجارة ، ولكن التحول هنا فى المناطق الشرقية من القاهرة والتى كانت القلب القديم ، تم على العكس بتراجع وانحسار القلب ، وبالتحـــول من التجارة الى السكن المختلط بالصناعة

على أن المهم أن هذه الحلقات الجديدة الوليدة هنـــا تكون ضيقة مختنقة نوعا وربما غير مكتملة الخصـــائص والمعالم فى هذه القطاعات ، خاصة اذا ما قورنت بمثيلاتها على الجوانب وفى القطاعات الاخرى من المدينة ، ولا تتسع الا مع وبقدر المزيد من تراجع القلب وانحساره عنها . والنتيجـــة الصافيـــة أن مورفولوجيـــة حلقـــات المدينة الداخلية التى كانت فى العصور الوسطي نصف دائرة قد أصبحت تخضع للنمط الدائرى بصورة عامة ، الا أنه هنا منبعج مختنق فى شكل مروحى . .

هذه العملية كلها لا شك بدأت فى القرن المـــاضى حين اخذت القاهرة الحديثة تستشعر هزة التحول الحضارى الجديد ، ولا جـــدال أنها ظلت تشـــتد مع شدتهـــا ، ولكنا لا نستطيع أن نتتبعها بالعين المجردة الا فى الاجيال والعقود الاخيرة حيث دخلت مرحلة النضـــج . هـــذا ويلاحظ فى تلك الفترة أن طغيان المصالح والمضـــاربات والنشاطات المالية الاستعمارية والجاليات الاوربية على اقتصاديات المدينة قبل التحـــرير ، وخاصـــة فى قاهرة ما بين الحربين ، اعطت منافسة خطيرة وقاتلة لمشروعات واعمـــال ومتـــاجر البـــورجوازية الوطنيـــة المتوسطـــة

والصغيرة ، مثلما نشرت تطلعات الاوربة والتغريب بين الجماهير ... الخ

وهذا كله أتى لحساب القلب العصرى « الاوربى » الحديث ، وعلى حساب القلب التقليدى الآفل ، وساعد على تصفيته وذبوله بالتدريج . والكثيرون ما زالوا يذكرون أو لا شك سيتذكرون حالات افلاس كثير من محلات الموسكى والازهر ... الخ فى تلك الفترة . أما اكتمال الهجرة من القلب القديم الى الحديث فيرمز اليه ببلاغة تحول مركز الثقل والاهمية من شارع الموسكى الى شارع طلعت حرب ، ومن ميدان العتبة الى ميدان التحرير . وقد يمكن أن نعتبر العتبة هى الحد الفاصل اليوم بالتقريب بين القديم والحديث فى قلب القاهرة التجارى . وفى الوقت الحالى ، أصبح القلب القديم — الموسكى والازهر والغورية ... الخ — يلعب فى كيان المدينة دورا أقل حيوية وثقلا مما كان فى الماضى ، ويأخذ بازدياد دور المعقل وخط الدفاع الاخير للقديم فى كل شىء ..

وعلى الفور ، لن يخطىء احد أن ها هنا ثنائية أساسية فى قلب العاصمة التجارى : قلب جديد نابض متنام ، عصرى حديث الطراز ، فى الغرب ، وقلب قديم عتيق الطراز ، آفل وفى انكماش مطرد ، فى الشرق . وهذه الثنائية ، التى يعرفها قلب كل مدينة هامة فى العالم الثالث ، تلخص وترمز الى الثنائية الحضارية القاعدية التى تميز هذا العالم الثالث منذ عصر الاستعمار الاوربى والاحتكاك الحضارى مع الغرب . ومن الطريف فى القاهرة أن نلاحظ الاتفاق بين الموقع الجغرافى والموقع الحضارى داخل هذه الثنائية : فالقلب الشرقى القديم

فى الشرق ، والغربى الحديث فى الغرب ! على أن هذه الثنائية مرحلية فى جوهرها وان طال الامد ، ولنا أن نتوقع ، ولكن ليس قبل عقود على الاقل ، أن يذوب القلب القديم فى الجديد فى نهاية المطاف مع اكتمال التحول الحضارى والتقدم المادى

وهنا وفى النهاية تفرض نفسها مقابلة لها مغزاها وطرافتها ، وذلك ما بين هذه الثنائية الحضارية وما رأيناه من قبل من تجانس بشرى فى السكان . فاذا كان قلب القاهرة يلخص التنافر الحضارى ، فان تركيب سكانها يؤكد أساسا التجانس البشرى . وهذا وذلك على العكس تماما من المدينة الامريكية : تنافر جنسي وبشرى حاد وصارخ ، وتجانس حضارى الى درجة التنميط الممل ربما . ولعلنا لا نغالى اذا قلنا فى هذا الصدد ان القاهرة أقدم عواصم العالم القديم ترمز له وتلخصه مثلما ترمز للعالم الجديد وتلخصه مدينة من أحدث عواصمه كواشنطن أو نيويورك ...

الفصل الأول

القاهرة .. بنت الصحراء

القاهرة ، أكبر المدن الصحراوية (٤١٤ كيلو مترا مربعا ، ٣٫٣٤٨٫٠٠٠ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٦٤ التقديرى) لها لون صحراوى ، والذى شادها هو ايمان ربيب الصحراء ، وأفضل لقاء لها هو من ناحية الصحراء عبر طريق للسيارات يبدأ من البحر الابيض المتوسط ويمتد ١٣٠ ميلا وسط بيداء متموجة غير مقبقبة الى أن يتصاعد خلف الاهرامات ليهوى الى واحة الوادى ، فيتراقص على مساره من نفث عاصمة كبيرة أطياف الوان ما بين الرمادى والبنى ، حتى الطائرات فأنها لا تتفادى رؤية الصراع بين الحياة والموت عند اقترابها الى ممر الهبوط فوق كثبان من الرمال الجرداء

والقاهرة مشادة من بطن الصحراء التى تتشبث بحضنها ، فالأهرامات اا العجائب التى اقامها خفرع وورثته قد تألفت من آلاف آلاف كتل من حجر رملى جرى نحتها أولاً من تلال المقطم ثم دفع بها الى الغرب طوفا على الماء عبر الوادى اذ النيل فى عز فيضانه مجتازة موقع المدينة اليوم ، وشاع بعد ذلك استخدام هذه الكتل الميسرة من لحم الصحراء المتجمد فى عمارة الأمراء المسلمين للمساجد والقصور

اما اليوم فقد رجع جانب كبير من المدينة الى صحراء

النسيان ، فقاعة الذهب التى كان يطل منها الخليفة المعز على حفلات بلاطه من خلف ستارة نسجها ووشيها من خيوط الذهب قد اندثرت هى والحجرات الاربعة الآلاف التى كان يضمها قصره بما تحويه من رقيق جلب من اليونان والسودان الذى كانوا يحفون به ليكونوا تحت رهن اشارته ، وكذلك لم يبق أثر لبهو الزبرجد فى الديوان الكبير ، وتلال المقطم التى جاءت منها الاهرامات والتى تلقى منها الشمس عند مطلع الفجر أول تحية لها على ابى الهول فى الغرب لا تزال تتعلق بها مساجد خربة كأنها تهويمات لم تتم من وحى أسطورة قوطية

أن الصحراء تغزو المدينة سواء فى ذلك طرقاتها الفسيحة أو الأزقة المتعرجة فى الاحياء القديمة ، وتهب رياح الخماسين من ليبيا فى شهر مايو تحمل معها ترابا ناعما يتسرب من خلال أحكم النوافذ فيضفى على المدينة ـ زرعها وأبنيتها ـ كساء من مسحوق رمادى . ان اهداب المصريين الطويلة هى سلاح ضد التراب ، لا مجرد زينة ..

ومباهج القاهرة ـ شأنها شأن مباهج الصحراء ـ تزداد جلاء لأنها فوق لوحة متربة . عديدة محال بيع عصير المانجو وقصب السكر لارواء الحلوق الجافة من العطش الشديد . وفى اركان معتمة رثة الحظ تتألق زهور بألوان متوهجة . وحينما تغيب الشمس اخيرا بعد نهار قائظ من وراء فندق هيلتون تسرى من فوق أرض الطرقات رائحة فريدة هى خليط من أنفاس الفل والياسمين وزخمة وحوش الفلا

والصحراء ،كالبحر ، هيهات أن يقال عنها خلاء محصن، بل انها ملتقى قوى عديدة ، وكما ربط البحر ما بين الجزر

اليونانية فى العهود الخوالى ، فان الصـــحراء ربطت بين البعيد والبعيد من اقطار الشرق الاوسط ، وقد وفـــد الزوار والسياح على مكان القاهرة منذ فجر التـــاريخ ، فهى وان اتخذت اسما عربيا فقد حظى موقعها باهتمـام كبير من قبل ان ينتشر العرب من جزيرتهم بزمن طويل ، فعند هذا الموقع الذى يزداد فيه النيل رحابة ليضم بين ذراعيه أرض الدلتا ، وهى على شـــكل مروحة ، اقام الفراعنة عاصمتهم منف (وهذا الهرم المدرج فى سقاره ، وهو اقدم بناء من الحجر فى العالم كله . لا يزال يطـــل على مقابر منف ، تراه بالعين المجردة من أعلى العمـارات فى القاهرة) وقد اقام الفراعنة أهم مقابرهم فوق هضبة الجيزة ، لا تبعد عن قلب القاهرة ــ ميدان التحرير ــ الا مســـافة ٤٠ دقيقة بالاوتوبيس رقم ٨ . ومدينة عين شمس ــ هليوبوليس الآن ويربطها بالقاهرة قطار المترو ــ كانت لها سمعة عالمية فى العلوم ، ولكهنتها فضـــل على هيرودوث وأفلاطون . وقد أطلق اسم عين شـمس على واحدة من جامعات مصر الاربعة

واشد زائرى القاهرة تأثيرا عليها لم يأتوا ببضـــاعة التجارة ، بل بأفكار دينية ، فالقاهرة اليوم ــ شـــأنها فى ذلك شأن مدن كثيرة ــ وليدة أحدث موجة من سلسلة أمواج المد البشرى ، تتناثر فيها شواهد عديدة على تعاقب الاديان . فقد اقام العبرانيون (الذين ذكرهم القرآن باسم بنى اسرائيل) فى شرق الدلتا وقاموا بنصيبهم فى صناعة الطوب ، ثم استوطنت جاليات يهودية ــ قبل ميلاد المسيح بعدة قرون ــ على ضفاف النيل ، وكان اكبر مراكزهم فى الاسكندرية بالقرب من مصب فرع النيل الغربى ، حيث شرح أفلوطين نظريته عن التوحيد بتعبيرات الفلســـفة

اليونانية ، وقد تبنت الكنيســـة نظريته عن « اللوجوس » أو « الكلمة » في شرح عقيدة التجسد الالهى ، ولـــكن العائلة المقدسة اختارت المدينة الرومانية بابلون في مصر ـ وهى مكان القاهرة اليوم ـ ملجأ لها عند خروجهم من فلسطين هرباً من طغيان هيرود . ولا يزال الرهبـــان الاقباط يقودون زوار كنيسة أبو سرجة لمشـــاهدة قبو رطب حيث نام « اللوجوس » وحراسه . وبالقرب منهـــا يوجد كنيس لليهود يحوى نسخة ثمينة من التوارة

ولكن لا الكنائس ولا الكنيسات تغلب على أفق القاهرة، فهذه المدينة ليست باليهودية ولا بالنصرانية . انهـــــا مدينة مسلمة نشأت بفضـــل دين محمد النبى العربى . هى عند المسلمين لا تقل جلالاً عن مكة ، التى تتجه اليهـــا قبلة الصلاة فى مساجد القاهرة ، ولا عن المدينة مثـوى الرسول . واذا كان الافق من حول القاهرة قد ارتسمت عليه منذ سنة ١٩٥٢ ظلال ناطحات الســـحاب وصروح أخرى هندسية ، فان العين لا تلحظ على هذا الافق اذا ترامت نظرتها فوق الاســـطح الغبراء الا المآذن المشرئبة للسماء ، يتردد منها صوت المؤذن للصلاة خمس مرات فى اليوم

وللقاهرة ـ لانها مدينة صـــــحراوية ـ ثروة نباتية تنفرد بها : زهور لا تنمو فى الشمال الا داخل بيوت من الزجاج وأشجار تضفى زينتها على ما حولها من قتامة ، اشجار الكافور التى تخشخش أوراقها الرقيقة ، أشجار السنط التى لا ترهب الجفاف ، اشجار الجميز ، أشجار التين البنغالى التى تتهدل منها فروع متجهمة لتنبت منها جذور أشجار جديدة معتمة ، ثم النخلة التى جعـــل القرآن ولادة المسيح تحتها . واذ كانت السماء لا تمطر

الا نادرا فان اللون الآخضر يشوبه على الدوام صـــفرة مغبرة ..

ولكن دع عنك النبت والحجر ، فان الذى يجعـــل القاهرة فريدة بين المدن الصحراوية انما هو هــذا النهر الذى يهبها الحياة ، فالمدن الاخرى التى تقوم فى الصحراء حيث الواحات انما يفلها العطش ويهددها ، أما القــاهرة فالصحراء عندها يشقها النيل ـ أطول انهار العـــالم القديم ـ يحمل اليها العطايا من شـــاطىء الاطلسى عبر الفابات والاحراش والجبال والوهاد فى أفريقية الوسطى

الفصل الثانى

القاهرة .. بنت النيل

منذ أن امتنع ورود ماء فيشي للقاهرة ، لا مندوحة لكل من يسكنها او يزورها من أن يكون شربه وقفا على ماء النيل ، هذا النهر الذى يلاحقه شعار : « من شرب منه عاد اليه » ، وأصدق منه الشعار القائل : « من ارتوى منه لم يطق السلو عنه » . أما للفلاح فماؤه ، وأن عكر ، فهو نعمة فيها الحياة ، فالناس تتشبث بهذا النهر وتلوذ به ، ففى فراقهم له عذاب الاشراف على الهلاك

وهذه العبارة الاخيرة ليست من وحى بلاغة خطابية ، لأنك لو شرقت او غربت عشرة أميال بعيدا عن شريط الماء وضللت السبيل فستموت عطشا ان لم يتداركك البدو أو جماعة من المنقبين عن البترول ، فالمطر نادر ، ولولا النيل لكانت القاهرة بقعة بلا اسم فى بيداء تمتد بلا انقطاع من جبال البحر الاحمر الى شاطىء الاطلسى عبر الصحراء الكبرى ..

أما اصدق شعار للنيل فهو المستمد من لونه ، فاللون المفضل عند عجائز العقيلات فى انجلترا لحفلات الرقص يوصف بأنه أخضر نيلى ، فاقترن النيل بخضرة يختص بها ـ اللهم عند الفجر حين يكتسى بغلالة جالت عليها الفرشاة التى رسمت ريش الطاووس ، أو عند منتصف الليل حين يكون لسطح الماء لمعة الفولاذ

أما الوصف الذى لا يلحق النيل فهو اباء الثبات ، فان مجراه قد خضع ـ ككل شيء فى الوجود ـ لتصاريف الزمن . والخضوع هنا تنظيمى ، للقضاء على نزوات النهر فى الماضى . أن النيل لمصر هو شريان قلبها . وكان أول بناء أقامه العرب حين رفعوا على مصر راية الاسلام هو مقياس النيل ، عند الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة، ولا يزال هذا المقياس ماثلا للعيون وان أقيم فوقه سياج حديث (وكان للفراعنة مقياس للنيل فى الاقصر وغيرها من المدن) ومقياس النيل بئر عميق كسيت جدرانه بالحجارة ، فى وسطه عمود له تاج من طراز كورنثى . و « الذراع » هو وحدة القياس المبين عليه . ان استنباء مقياس النيل أشد لزوماً وأجل خطرا من التكهنات بحال الطقس عند الاوروبيين قبيل العطلات الصيفية ، فعلى مقدار ارتفاع المياه فى المقياس يتوقف الغد : اما خصب وما جدب . .

والموعد المرتقب لوصول فيضان النيل من أواسط أفريقية يقع فى أواخر اغسطس . حينئذ تخرج المدينة كلها للترحيب بمقدمه فى احتفال يسمى « وفاء النيل » . أما فى السنين التى يخشى فيها أن لا يفى النيل كعادته ، فكانت طوائف المبتهلين تخرج من شوارع القاهرة على الشاطىء الشرقى وعلى رأسهم السلطان ومعه رجال الاديان جميعها ـ ائمة المسلمين وقسس القبط وحاخامات اليهود ـ فيقيمون صلاة جامعة للاستسقاء . كل يقرأ فى كتابه المقدس ـ ليمن الله عليهم بنيل واف عميم . وكان الفراعنة فى القديم يحسبون الفيضان من دموع ايزيس وهى تبكى على أوزيريس ، وكانت لهم طقوس تتصف بالقسوة ، تطورت مع الزمن حتى وصلتنا وهى

رحيمة ، انها طقوس زفاف النيل العاشق وعروسه « عروس النيل » كانت فى القديم فتاة يضحى بها كما كان يضحى أهل أثينا ببعض فتياتهم على قرون «ميناطور» الغول الذى نصفه انسان ونصفه ثور ، ثم أصبحت العروس دمية فى حجم فتاة

والان تتولى السدود تنظيم النهر ، فلن يتكرر جفاف شهر يوليو الذى يعقبه ، بشكل درامى ، غمر الماء فوق شواطئه الطينية العامرة بالفيران . لم يعد يتألف موكب الزوارق للاحتفال بالفيضان ، واذا علا ماء النيل فى أوائل الصيف فانه علو قليل ، حينئذ يشكو أهل القاهرة من الرطوبة تضاف الى الحرارة ، فيهرب الاغنياء منهم الى الاسكندرية ، رطبة هى أيضا ولكنها اندى نسيما ، دع منك شكوى أهل القاهرة أيضا من كثرة البعوض

لقد بدل النيل مجراه على مر الزمن فتبدلت أيضا مرافقه ، فأقدم موانىء النيل على الشاطىء الشرقى للقاهرة (أما منف فهى على الشاطىء الغربى) كانت بالقرب من موقع بابيلون الرومانية الى الجنوب من القاهرة بنت اليوم . وفى القرون الوسطى كانت الميناء هى « المقس » بالقرب من الموقع الذى يحتله الان فندق الكونتيننتال وحديقة الازبكية ، وحى المتاجر والملاهى ـ بطابعها المصرى ـ الواقع على يسار خط يمتد من ميدان المحطة « باب الحديد » الى باب اللوق عبر الازبكية ، كان ارضا عامرة بالبساتين والحدائق فى أوائل القرن التاسع عشر تغمرها مياه النيل فى كل صيف . وفى القرن الثامن عشر كانت الارض التى تحتلها حديقة الازبكية مكانا لبحيرة متسعة (وقد تقلص حجم هذه الحديقة على أثر التخطيط الحديث لمدينة القاهرة) ثم انحسر ماء البحيرة وجفت

أرضها بحيث استطاع نابوليون أن يستعرض فوقهـــا جيشه . اما ميدان باب اللوق ــ كمـــا نعرفه اليوم ــ بسوقه ومحطة الضاحية حلوان ــ فقـــد كان فى القرون الوسطى مرفأ القاهرة ــ بابها من ناحية النهر . فلمـــا بدل النيل مجراه اختفى « المقس » وحـــل محله بولاق ، وبرز من النهر بجزيرته « الجزيرة الوســطى الان » ، ثم اندمج حى بولاق فى بقية أحياء السكنى وضاع بينهـــا ــ كما ضاعت شلزى فى لندن،ولكنه كان حتى أيام نابوليون الباب النهرى للقاهرة ، وكان الذين يصلون بالسفن اليها وينزلون عند بولاق لا يتبينون منظر المدينة لكثرة اكوام النفايات الشاهقة كالجبال ما بين النهر وسور المدينة

ومجرى النيل لم يتبدل فحسب ، بل جرى عليـــه عدوان الاسمنت المسلح ، وكذلك الحال مع تلال النفايات فقد تسلقها عديد من البيوت أو غطتها صفوف منالاشجار

وكان يشق قلب القاهرة الى مطلع هذا القرن خليج كان أول مجرى يتلقى مياه الفيضـــان تتدفق اليه من مصب اندثر مكانه الآن ، ليسير بعد ذلك فى اتجاه شارع الموسكى، وكان هذا الخليج يضفى ــ فعلا لا مجازا ــ على المنـــازل المطلة عليه عطور مدينة جديرة بأن تسمى « بندقيـــة الشرق » ، وقد حل هذا الخليج محل القناة التى أنشأها الامبراطور الرومانى تراجان لربط وادى النيل بخـــليج السويس عبر شرق الدلتا ، وقد بطل استخدام هـــذه القناة الى ان جددها عمرو بن العاص ، أول حاكم مسلم لمصر ، ليتسنى تصدير الغلال من مصر لبـــلاد العرب . وشارع الخليج الان ــ وكذلك شارع الـــكورنيش ــ هو أطول شوارع القاهرة ، أنه شارع عريض لا يســـلم من الدمامة ، وعمدانالنور فيه قميئة مصنوعة من الالومنيوم

اسمه الان شارع بورسعيد . حقا أن أسماء الشـــوارع أسرع من مجارى الانهار فى التبدل

وكان النيل فى مطلع القرن التاسع عشر ـ كالبسفور ـ بمثابة الهوة المخيفة تحت قصور الحكام ، يلقى فيهـا بمشيرى المتاعب من الرعايا وهم موثقون لتتلقفهم أحضان نهر لا ندرى هل له عشق الذكر أم عشـــق الانثى ، أما اليوم فقد اختفت هذه الذكريات الاليمة وصـــار النهر عنصر وداعة ورقة فى مدينة تتصف بحدة الملامح والطبع

وامام فندق سميراميس يقف نوتية ســـمر الوجوه لتلبية رغبة من يريد من أهل البلد أو الاجانب استئجار فلوكة ، وأغلب هؤلاء الرجال من أسوان فى أقصى الجنوب . واجرة نزهة لمدة ساعة هى خمسة شلنات . وما ان تخطو فوق صقالة مهتزة حتى تتراجع بعيـــدا الى الوراء كل ضجة ورائحة للبترول ، وتنتفخ بالهواء القـــلاع المرقعة وتعالج بحذق فاذا بالأذن يشجيها صوت تلاطم المـــاء على جانبى الفلوكة . ان شكلها مخلد على صـفحة النيل ، تنساب أمام المبنى الحديث لمستشـــفى قصر العينى الى كوبرى الجامعة ، وفى ايام الاعياد والعطلات تنبعث غلالة من الماء أعلى من الفنادق من نافورة من الاسمنت وسط النهر أقامها « مصنع كروب لاقامة الكبارى »

ويختلف نهر النيل عن نهر عربى كبير هو الاخـــر ، نهر دجلة ، واسمه فى اليونانية تيجريس بمعنى النمر ، فدجله نهر مفترس عنيف يطغى على الاراضى فى أســـوأ موعد ، أى فى فصل الربيع حين لا حاجة بعد لفيضانه ، أما نهر النيل فهو أكثر أنهار العالم نفعا ـ نافع للرى والنقل على سواء ، فان تياره المتدافع دوما نحو الشمال يحمل السفن الى البحر الابيض المتوسط ، ورياحه الغالبة

عليه تهب من ناحية هذا البحر فى الشمال فهى تسهل على هذه السفن رحلة العودة دون حاجة الى عون آخر ، وأهم من هذا كله فهو يفيض عندما تشتد الحاجة الى مياهه اى عندما يبدأ لهيب الصيف فى تقديد الحقول

ويحب أهل القاهرة النيل لانه عنصر الوداعة والرقةفى بيئتهم الصحراوية ، وافضل المساكن ما كان مطلا عليه ، وبعد أن احترق فندق شبرد فى مكانه القديم بجوار الازبكية ، أقيم له مبنى حديث يطل الى الغرب على النيل هو وفندق سميراميس وفندق هيلتون . وينشق النيل الى فرعين اذا التقى بالجزيرة الوسطى ، اما فرعه الغربى الضيق فتصطف فيه بيوت من الخشب ، هى العوامات ، قميئة وان تكن عليها مسحة رومانتيكية ، وأكبر عيب فيها أنها عرضة لهجوم البعوض

ويتم خنوع النيل للقياد عند القناطر الخيرية شمال القاهرة . انها سد عريض يحتجز الماء لاشهر اربعة عطشى . وهذه القناطر ترمز لتوسط موقع القاهرة عبر التاريخ فهى مقامة عند رأس الدلتا فملكت السيطرة على مصر السفلى والعليا ، ومن ملك مفتاح الماء فى بلد صحراوى ملك البلد كله . ويرجع الفضل فى اكتساب القاهرة لاهميتها الى انها واقعة حيث يتفرع المجرى الموحد للنيل الى عدة رياحات تنتشر شمالا كالمروحة لتروى أرضا هى مضرب المثل فى الخصب . والقاهرة ليست مدينة كبيرة فحسب ، بل انها عاصمة كبيرة ايضا فى يدها مقاليد أمة بلا منازع ، ولكن اهلها خليط من أجناس عديدة ..

الفصل الثالث

القاهرة .. أم الألوان العديدة

ظلت القاهرة منذ مولدها مدينة (١) متعددة الالوان ، حتى فى القرون التى كانت فيها « دار السلام » مفصولة عن « دار الحرب » ـ أي البلاد النصرانية . لم تنقطع أجناس عديدة عن الاندلاق على مصر ، من بينها شتات الصليبيين (سنة ١١٦٣) . هذه هى حال لم تتبدل لمدينة لا تكف عن التبدل . طرق أبوابها الرقيق الابيض من القوقاز ، الذين صاروا فيما بعد حكام البلاد تحت أسم المماليك ، والرقيق الاسود من السودان (وما كان أكثر ثوراتهم على الجلابة تجار الرقيق ، وكان هؤلاء فى وجلهم يجعلون بيوتهم أشبه شيء بالحصون ذات الابواب المنيعة) . والى جانب أولئك جميعا تجار من جاوة

---

(١) كلمة مدينة هى من الكلمات التى حار اللغويون فى معرفة مصدر اشتقاقها ويقول الاستاذ الدكتور محمود حجازى فى كتابه «اللغة العربية عبر القرون» ان بعض اللغويين يرى أنها من مادة مدن ويرى البعض الاخر أنها الميم ليست أصلا وأن الاصل هو د ى ن أو دان والواقع ان البحث المقارن يخرج هذه الفروض الى مرحلة الاثبات العلمى فاللغات السامية تعرف الدين بمعنى القانون والديان فى العربية والعبرية والارامية هو القاضى و «بيته دين» فى العبرية هى محكمه كما تعرف العربية «الدائن» و «المدين» لمصطلحين قانونيين فالمادة كلها تعنى أساسا القانون ومايتعلق به من ضوابط والتزامات . أما الصيغة ذات الميم فظهرت فى الارامية بمعنى وحدة قضائية ، فالمدينة هى المركز الذى التفت حوله القرى المجاورة وتولت جميعا وحدة قضائية . وعندما انتقلت الكلمة الى العربية واطلقها الرسول على يثرب كان هذا فيما يبدو أول استخدام للكلمة فى العربية

والصين وعلماء وفقهـــاء من تونس ومراكش ، واكثر من هؤلاء عددا وتدفقا حشود الفلاحين المصريين من الدلتــا وجنبات الوادى تجرى فى عروقهم آثار دماء فرعونية ، يضـــاف اليهم طوائف من أهل ليبيا والنسوية واليونان والصومال والحبشة . وهكذا استقر من قـــديم طابع القاهرة المميز لها ـ طابع تعدد الالوان كما كان يبـدو فى معاهدها العلمية وفى خاناتها التى تستقبل التجـــار من كل الانحاء (ويحق لنا أن لا نعتمد على صيغة التعميم ـ وان كانت جديرة بالملاحظة ـ التى أوردتها ناشرة كتــاب « دليل المسافر » سنة ١٨٩٦ عن دار موراى للنشر فى وصف أهل القاهرة اذ جاء فيه أن ابن البلد القاهرى أسرع وأذكى من أبناء عمومته القادمين من الريف فهـــو بصفة عامة يتميز بخصائص بادية عليه كالسحنة السمراء الضاربة للصفرة والفم الواسع والشفتين الغليظتين كاملتى الخلقة والانف البدين العريض والساقين الضخمتين كمــا تلحظ العين انه صلب متين البنيان) ..

وحين فتح نابوليون أبواب مصر للاوروبيين أصـــبح تناقض الوان القاهرة أشد اثارة للانتباه والعجب فقـــد انضم الغرب العصرى على الشرق التليـــدى ، وان كانت الاضافة الجديدة لا تمثل افضـل الغربيين أو من ذوى الاستقامة والامانة منهم ، فقد توافدت على مصر فى القرن التاسع عشر موجات من المهاجرين الهاربين من الفقر فى بلاد جنوب أوروبا ، وأصـــــبح عدد هؤلاء الاوروبيين المستوطنين بمصر يعد بمئات الالوف ، وانضم اليهم جواب الارض من الليفانتيين نسبهم المصريون المضـــيافون الى الشام وهى كلمة عربية تطلق على دمشق وتمتـــــد حتى تشمل سوريا ولبنان . وازدهرت أحوال هؤلاء الاجانب

فى مصر - اللهم من حيث الصحة كأن الطبيعة تغدق عليهم بيد وتعاقبهم بيد ، وان سحنتهم لا تسلم من ان يغشاها شحوب رمادى أقل رواء من سمرة من يقيمون بين ظهرانيهم ، ولكن رصيدهم فى البنوك كان يتمتع دائما بأطيب صحة ..

وليس اسم العاصمة فى اللغة الدارجة هو القاهرة ، بل مصر ، وهو بالعربية يطلق على القطر كله . ومنذ ثورة ١٩٥٢ أصبح التمصير - عن خطة أو عفوا - هو السياسة المتبعة ، فانحسرت موجات الاجانب الوافدين ، أزاحتها قوانين جديدة واجراءات المصادرة والتأميم وتغير المناخ السياسى ، وما جذب أيضا هؤلاء الاجانب الى العودة الى مواطنهم الاصلية هو ما أصبح يعمها من رخاء . وأمست القاهرة أقل وضاحة وأناقة . وكان الشعب فى أواخر عهد فاروق قد سقط فى وهدة فقر زاد من وطأته انلانجاة منه ، وحريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ (وقد قامت محطة بنزين بين شارعى عدلى وثروت مكان نادى « التيرف » الانجليزى) لم يكن احتجاجا على الفقر فحسب بل كان احتجاجا أيضا على الترف الباذخ وسط هذا الفقر ، ففى تلك الايام الكئيبة كان شارع فؤاد الأول وشارع سليمان باشا (٢٦ يوليو وطلعت حرب الان) ترتادهما أميرات جميلات لشراء كل ما يروق لهن من المتاجر الفاخرة ، وكانت بعض المطاعم تقدم القواقع وانواع الجبن الاجنبى ترد لها بالطائرة من باريس ، بينما عاش أفراد الشعب على دخل لا يزيد عن قروش قليلة . لم يعد فى القاهرة الجديدة قمم للاناقة،فالقصد هو تحقيق الاستواء ، لاقمم تشمخ فيها الاناقة ولا وهاد يعشعش فيه الفقر ..

واذا كان هدف الحكومة هو الوصول الى مجتمع متجانس فان العين لا تخطىء أن تلحظ تباين الانماط بين أهل القاهرة ، فالمدينة فى ذاتها — بتعدد أحيائها وأحوالها — تعكس اختلاف الاجناس والالوان والعادات التى يتألف منها المجتمع القاهرى

الفصل الرابع

القاهرة .. الطابع البلدي

بالقاهرة ثلاث صحف يومية ـ الاهرام (١) والاخبار والجمهورية ـ تتنافس فيما بينها ولكنها لا تتشاجر ، ورسامو الكاريكاتور فيها اذا تمثلوا القاهرى القح جعلوه عادة رجلا نحيلا قصيرا مخلوع العذار ، ذرب اللسان ، قد يلبس نظارة ، ويخب فى جلباب فضفاض من قماش قطنى مخطط وينتعل خفا من الجلد ، وعلى رأسه عمامة مشوشة ـ أو طاقية قطنية بيضاء ، فالطربوش الاحمر ـ وكان قد استحدثه الاتراك اقتباسا من شمال أفريقية ـ قد اختفى لاعتباره رمزا للتخلف ، فلا يتشبث به الان الا السياح الاجانب وخدم المطاعم من أهل النوبة ، ولم يرج عند القاهرة لحسن الحظ هذا الزى الذى انتقل اليه الاتراك فيما بعد « البيريه » التى فرضها أتاتورك على شعبه ، وهى غطاء من قماش للرأس ينتهى برفرف أمامى ، وتختص به الطبقة العاملة فى أوربا ، لم تأخذ بها القاهرة تقليدا للاتراك ، فأغلب رجال العاصمة ، وكل نسائها بصفة عامة يسيرون برءوس عارية

والصفة التى تطلق على القاهرى كما يتخيله رسامو

---

(١) جريدة الاهرام هى أقدم الجرائد وقد أسسها الأخوان تقلا وقد هاجرا من لبنان فى سنة ١٨٧٥ ، وقد صدر قانون فى سنة ١٩٦٠ الغى الملكية الخاصة للصحف

الكاريكاتور كما تطلق على الشوارع الخلفية هى صفة « البلدى » وهى فى اللغة نسبة الى « بلد » • وكلمة بلدى تصف طريقة الحياة التقليدية كما تصف الاحياء التي تعيش فيها هذه التقاليد • والمصرى بجلابيته المخططة وصوته الاجش واهتياجه السريع وفضفضته فى التعبير عن نفسه بالصوت والاشارة ، قد يبدو فى نظر السائح الاجنبى الهياب شخصا متنافرا مع عاصمة تتراكم عليها المدنية الحديثة ، بل قد يبدو شخصا يثير التوجس ، أما الذين يكلفون انفسهم عناء مقابلته « وهو سهل المنال فى دكانه الصغيرة او فى مقهاه المألوفة » يجدون ابن البلد هذا ـ ملح الارض ـ شخصا يتصف بالتواضع والصراحة وحب الفكاهة والمساواة بين الناس ، فان كان شيخا فتوقع عنده ما شئت من مراسم حفاوة رب البيت الكريم بضيوفه • ان اساس نمط معيشتهم قد رسخ فى أقدم احياء القاهرة حيث تراكم الزمن طبقة فوق طبقة ، وحيث تقوم دور متداعية فوق خرائب قصور الخلفاء أو فوق اكوام النفايات ..

والكتاب الذين تحدثوا منذ قرن مضى عن القاهرة ، وأشدهم دقة هو أدوارد لين صاحب الاثر المعروف « العادات والتقاليد عند المصريين المحدثين » وصفوها بأنها مدينة رحيبة تزيد سعتها على عدد سكانها حتى لتبدو كأنها غير مأهولة ، ففى سنة ١٨٣٦ لم يكن قد حدث بعد ، ما ترتب على نمو السكان من اختزال الى اصغر فأصغر للبيوت العربية الفسيحة بأفنيتها الداخلية الرطيبة، مما ادى الى تزاحم المساكن واختفاء العناية بها • وحين نشر لين بول وصفه للقاهرة بعد سبعين سنة من التاريخ السابق كان لا يزال فى الاستطاعة التحدث بافاضة عن

الاحياء القديمة على النحو الاتى :

« بعد زحام الطرقات وضجتها ستجد انتعاشك فى هذه الرقعة الفسيحة الهادئة داخل الدور ، هنا تحس أن المعمار المصرى قد وفق أبدع توفيق فى الوفاء باحتياجات العيش تحت سماء الشرق ، فانه جعل الشوارع ضيقة ، يسقط عليها ظل المشربيات البارزة لان الشمس تصب شواظها ،

فلو كانت الشوارع فسيحة كما هو الحال فى مدن أوروبا لأصبحت لا تطاق • وان جعل الشوارع ضيقة فقد حرص على أن يجعل المساكن فسيحة مع احاطتها بأفنية خلاء أو مزروعة بساتين وحدائق ، فحين لا هواء تصير حرارة الحجرات فى الصيف غير محتملة ، وفن المعمار المصرى كان يقتضيه ان يبنى لك بيتا لا تطل منه على جارك من خلال نوافذه ولا يطل هو عليك من خلال نوافذك ، فكان الاسلوب البديهى لتحقيق هذا الهدف هو بناء الحجرات حول فناء داخلى عالى الاسوار . وستر النوافذ بمشربيات كأنها الدانتلا تسمح بتسلل ضوء خافت ومرور هواء كان مما يتيح لمن يطل من هذه الحجرات أن يرى الشارع دون أن يتأتى للمار الغريب ان يتبينه • وهذه المشربيات ـ او قل هذه الستائر الخشبية ـ وكذلك هذه الافنية المعزولة كانت لازمة لنظام حياة يقضى بحجاب النساء »

ومابقى الآن من بيوت من هذا القبيل يعد من معروضات المتاحف ـ مثال ذلك بيتان بجوار مسجد ابن طولون ، تولى ضابط بريطانى الاحتفاظ بهما بطابع القرن السابع عشر وخلع اسمه على ما يعرف اليوم بـ « متحف جابر أندرسون » • وفى القاهرة القديمة بيتان بديعان من الطراز المملوكى : بيت جمال الدين الذهبى وبيت الشيخ السحيمى ، بقيا محتفظين بطراز لم يعد يمثل القاهرة

الحديثة ـ ذلك ان حجاب النساء قد سقط لزومه في حياة المصريين اليوم . ويرجع بعض الفضل فى هذا التحول الى نزعة التجديد عند المفكرين من أمثال الشيخ محمد عبده شيخ الجامع الازهر الذى توفى فى السنة السابقة لنشر الكتاب الذى نقلت عنه . وكان من نتيجة شيوع هذه الافكار ، مع تفسير جديد للدين الاسلامى يتلاءم مع القرن العشرين أن أصبح الاف من النساء يعملن مع الرجال جنبا الى جنب لا فى دور العلم فحسب بل فى المصانع والمكاتب الحكومية . وهناك فى الازهر اليوم فتيات يدرسن علوم الشريعة ..

وساير نزعة التجديد فى الفكر الاسلامى نمو مطرد خلال قرن لنظام علمانى للتعليم ، فى قمته جامعتان فى القاهرة ، تقوم بجانبهما ايضا جامعة أمريكية . واغلب الشباب من الكتاب والمفكرين لهم نزعة علمانية ، وبعضهم يولى ظهره للدين ..

دع عنك هذا التحول الفكرى ، فان تزاحم البشر فى القاهرة يجعل الفصل بين الجنسين مستحيلا ، ولم يعرف الريف قط نظام الحجاب حيث تعيش النساء وهن سافرات يساعدن رجالهن فى العمل بالحقول . ان نظام الحجاب كان شرفا مقصورا على المدن . وكل مبالغة تقصر عن وصف ازدحام الاجساد فى القاهرة ـ اكبر مدن افريقية ـ لا لان اهلها يتكاثر نسلهم جيلا بعد جيل فحسب ، بل لانها كالعهد بكل العواصم بمثابة الاسفنجة ، تمتص مئات الالوف من المهاجرين من ابناء الريف ، وترتب على ذلك ان كل قطار قادم من الشمال أو الجنوب يصب فى القاهرة مزيدا من السكان . كان عدد هؤلاء السكان سنة ١٨٨٢ هو ٣٧٤ر٨٣٨ ، وتضاعف هذا العدد عشر مرات فى سنة

١٩٦٤ وسيتجاوز أربعة ملايين حين تمضى سنة على نشر هذا الكتاب

والقاهرة القديمة .. اى هذه الرقعة التى لا يتجاوزها صوت المؤذن فى مساجد حى القلعة ، لم تعد المركز الذى يتكشف عنده هذا النمط التقليدى لحيـــاة أولاد البلد ، فهذه شبرا كانت قرية انشأ فيها محمد على قصرا صيفيا له ، وكانت الكتب المعدة للسائحين الى ســـــنة ١٨٩٦ توصيهم بشبرا اذا أرادوا الركوب فى الامسيات للتنزه فى الريف ومشاهدة قنواته وجاموسه . أما اليوم فاذا اردت ان تشاهد الريف فعليك ان تمضى الى جهة أخرى : غربا الى الاهرامات أو جنوبا الى حلوان ، لان شبرا ذاتها أصبحت أشد زحاما من ايسنت هام وهارلم اشد احيـــاء لندن ونيويورك زحاما ، واحتل نظام المعيشة البلـــدية مئات من شوارعها . واذا كانت شبرا لم تعد تصلح لمن يريد التنزه فى الريف فانها مع ذلك تســـتحق الزيارة بسبب أن فيها كنيسة « سانت تريزا » وهى احـــدى المزارات العجيبة الموجودة فى العالم ، أخذ فى انشائها فى العقد الثانى من هذا القرن طائفة من الكارميليت تجمع بين الانجليز والارلنديين ، وبدأ محراب صغير فيها يجتذب اليه جموعا غفيرة من المسلمين والمسيحيين على حد سواء ، والكنيسة القائمة اليوم هى مزار للامهـــات المصريات ، يدفعن فيه بأبنائهن أو بقطع من ثيابهن للمس صندوق زجاجى يضم رسما للقديسة ، وجدران مدخل الكنيســـة منقوش عليها نذور بأكثر من اثنى عشرة لغة من بينها نذر لرئيس وزراء سابق فى مصر .

و « العباسية » حى كذلك من الاحياء الســـكنية التى اندلقت فيها المدينة القديمة خارج حدودها وفاضت على

الاراضى البراح الممتدة الى هليوبوليس والمطـــار ، فقصر حبيب سكاكينى ، وهو أعجوبة بطرازه القوطى وبأعمدته على هيئة نحتيات من ذوات الاجســــام البضـــة وبأطره الجدرانية المنقوش عليها زخارف نباتية حول الحــرفين الاولين لاسم صاحبه الليفانتى ولقبه ، كان فى الاصـــل معدا لاقامة خلوية ، فأصبح الان تلتقى عنده دروب عديدة لحى سكانى مزدحم الى درجة الاختنـــــاق · وحتى فى هليوبوليس « مصر الجديدة » تمتلىء الشـــوارع الخلفية بمنازل على غرار منازل الاحياء السكنية فى القـــــاهرة القديمة ، ولكنها تستوعب اجهزة الترانزستور والغسالات الكهربائية كما يستوعب عش الطائر نتفا منزوعة من نفاية خيوط الغزل أو صفيح السباك ، وتلعلع أجهزة الراديو من المقاهى ، ويسير الناس فى الشوارع مرتدين البيجامات وتعرقل ٤٠ الف سيارة حركة المرور ، ويندفع رجـــال الشرطة بزيهم الاسود شتاء الابيض صيفا فى نقاش بصوت عال مع المارة حتى ليظن العابر خالى البالى أن ثورة توشك أن تندلع وهذا هو طبع الشرق ثم يتحول هـــذا كله الى تكشير بالانياب سرعان ما ينقلب الى تبادل الســلامات · وهنا طرح كبير للاطفال كطرح الكتاكيت ولكنهم كتاكيت غير متشابهة عند خروجهم من معمل التفريخ فهم أخــلاط متباينة ولهم ضجة عالية ، انهم لا يزالون فى رهبة من آبائهم ، كثير منهم يميل الى الشر وبعضهم الى الانحراف، ولهؤلاء ملاجىء اصلاحية يدخلونها ان أمكن القبض عليهم فهم خفاف فى الجرى والقفز ، ومع ذلك فلا تدل الاحصاءات على تفشى هذا النوع من الاجرام المعدوم الهدف الذى هو فى بعض الاحيان طابع المجتمعات الاكثر رخاء

والاحياء البلدية فى القاهرة جديرة بالزيارة فى جـولة استكشافية فهى بقايا لا تزال حية لمسرح الف ليلة وليلة، واذا كان كثير من حوادث هذا العمل القصصى العظيم عند العرب قد وقع فى بغداد فان المجتمع الموصوف فيه هو مجتمع القاهرة ، ولا يزال كثير من سمات الحياة كما تبدو فى الف ليلة وليلة باقية الى اليوم. وخير الطرق لاستكشاف الاحياء البلدية هو ان تسعى اليها مشيا على القـدمين ، وستكون آمنا مطمئنا ، ولكنك قد تتعرض لاشتبـاكات جدلية اذا ابرزت آلة تصوير لا ترحم ، فانها قـــد تثير الغضب والاحتجاج من جراء الشعور بأنــك تخليت عن دور الضيف ــ وللضيف مكانته المقدســة فى الشرق ــ لتقوم بدور « البصاص » الذى يتصيد عجائب القارات كما يتصيد هاوى الفراشات انواعها العجيبة وان هــذه الامثلة التى تجمعها لعجائب السلوك الانسانى ستعرضها على اصدقائك فى بيتك حين تعود اليه فى جو من التندر والسخرية ، والسبب ان هؤلاء الناس اصــحاب القلوب الطيبة قد بدأوا يعيشون فى مأساة انتباههم الى أنهــم متخلفون ، وان اعتماد كيانهم على الدروب الضيقــة والمعيشة والعمل نشرا تحت قبة السماء قد يعــد من الوصمات . والطبقة الوسطى فى المجتمع هى التى غرزت فى اذهانهم هذا الخاطر اكثر مما غرزه الاجانب . وفى الحق ان خير نتاج مصر هو الذى ينبع من هذه الدروب الضيقة ، فهنا حيوية هيهات ان يكون لها قرين ، وحماس وتطلع ، جديران بالاعجاب ، لمباهج الحياة الصغيرة الهامة تنال عفوا

ولكن ليس كل افراد الطبقة الوسطى ينظرون الى هذا الطراز من المعيشة نظرة ازدراء ، فالروائى نجيب محفوظ

قد سجل بعناية قصوى مشاهدها فى روايته « بين القصرين » وهى ثلاثية تتتبع الاجيال وتعكس حياة أولاد البلد فى أدق تفاصيلها ، وكذلك يوسف شاهين وهو من ألمع المخرجين فى ميدان السينما بمصر قد صنع فيلماعن شاب مصاب بانفصام الشخصية يرتدى الجلابية وجعل حوادث الفيلم كله تدور فى محطة باب الحديد بضجتها العالية وحواشيها الرثة الحظ

الفصل الخامس

القاهرة .. الطابع الإفرنجي

واغلب أولاد البلد فى القاهرة يقبلون على شراء البنطلون اذا قدروا على دفع ثمنه ، يقتبسونه ويقتبسون معه نمط الحياة الافرنجية . وكلمة « أفرنجى » هى المقابلة لكلمة « بلدى » . انها النطق العربى لكلمة «فرانك» وهى اسم قبيلة جرمانية استوطنت فرنسا فى القرن الخامس واطلق فى الشرق على الاوربيين عامة ، فهى تعنى الآن فى موضوعنا كلّ ما هو ليس بمصرى ، او كلّ ماهو أجنبى . وكان التفرنج يعنى فى البدء ـ علاوة على لبس البنطلون ـ الرقص الأوروبى على انغام الموسيقى وحفلات الكوكتيل واللوحات الزيتية فى حجر الاستقبال بدلا من لافتات الخط العربى واثاث من طراز لويس الخامس عشر ـ يصنعه للزبون المتفرنج نجار بلدى ! ـ ويعنى فوق ذلك أيضا ايداع النقود فى بنك لا فى شمكجية . كان هذا فى البدء ، اما الان فقد أصبحت جميع هذه الأشياء من صميم الحياة فى القاهرة بحيث انقطع الاحساس بانها من اختصاص الافرنج

والمتفرج القاهرى (وهو مسلم فى تسع حالات من عشر) ينبغى التفريق بينه وبين «الخواجة» ، وهذا لقب صيغ فى الاصل ليطلق على كلّ من هو مسيحى أجنبى وان شمل احيانا القبطى : المصرى المسيحى ايضا . ويعيش

المتفرنج القاهرى والخواجة جنبا الى جنب فى وئام اشد من وئام المسيحيين والمسلمين فى قبرص ، الاان لكل منهما حسابا مختلفا للاخر . قد يكون نمط حياتهما متشابها، ولكن «الخواجة» الذى كان من قبل يتميز بسلطان اكتسبه ابان هيمنة الغرب المسيحى على اقدار العرب ، قد خف الآن فى الميزان . وكلمة « خواجة » ذاتها ــ وهى من القاب التكريم فى لبنان ــ اصبحت فى مصر تبطن معنى الازدراء ، لذلك يفضل الاجنبى ان يكون النداء عليه « ياسيد » بدلا من « يا خواجة ». فان كلمة سيد فى مصر الآن تعمل عمل كلمة «مستر» فى انجلترا

والطبقة الوسطى هى العنصر الحاكم على القاهرة الحديثة ، فمن صفوفها خرج اولئك الذين يخططون العاصمة كما هى اليوم ، ويرسمون لها اذواقها ، ويقودون ثورتها . وقد انبثقت هذه الطبقة الوسطى حديثا من الجماهير البلدية ، وكان القرن التاسع عشر يكاد يولى من قبل أن يصبح للعامة من المصريين حق امتلاك الارض ، وكان كسر احتكار الإسرة الحاكمة للملكية العقارية هو منشأ الطبقة البورجوازية ، والفروق بين الطبقات المائعة ، والطبقة الوسطى آخذة فى النمو ، وقد نحدس حجمها من نتائج احصاءين ، فبينما لايزيد عدد اصحاب السيارات فى القاهرة عن ٧٠ الفا نجد مالا يقل عن ٦٠٠ الف من سكانها بين موظف حكومى اومستخدم ، وفئة المستخدمين تشمل اناسا قد وضعوا قدما ــ على الاقل ــ على اول سلم الطبقة الوسطى

وتعيش الطبقة الوسطى موزعة فى كل الاحياء السكنية، ففى شوارع يغلب عليها الطابع البلدى بضجته ودكاكينه ولعب اطفاله بالكرة فى الطرقات ، تتعالى عمارات تسكنها

اسر متفرنجة ، وان بقى لهـا اقارب فى القــرية او فى المدينة . ولكن بعض المناطق يكاد يغلب عليها الطابــع الافرنجى . والزمالك هى اكثرها عمرانا واشدها افتقارا الى السمة الذاتية وهى تمتد مسافة ميل ونصــف فى شمال «الجزيرة» ، هنا تتبادل اشجار البوجانفيليــــا والزاكرندا والبوانسيتيا تزيين شوارع تقوم على جانبيها دور السفارات واعيان القاهرة . اما الطرف الجنــوبى من « الجزيرة » ، فيعيش تحت جناح برج القاهرة ونادى الجزيرة ، وكان هذا النادى فى وقت ما وقفا على الموظفين الانجليز ورجال الاعمال الاجانب ، واليوم ورثه المصريون عنهم ..

اما الروضة ــ الجزيرة الجنوبية ــ فهى اقل طولا من «الجزيرة» بمقدار ميل ونصف واقل منها ايضا تعاليا ، فان عماراتها المزدحمة بالسكان لا يسعى اليها الا لابسو البنطلون ، اما لابسو الجلاليب فهم الخدم والباعة ، على حين أن الشاطىء الغربى للروضة تتسم مساكنه بالترف

وفى أحد القصور المطلة على النهر كان يقيم باشا مصرى متزوج من سيدة يونانية ، وبلغ من غرامها بالطب الفرعونى القديم أن خصصت له ثلاثة معامل. وفى احدى المناسبات عارضها صديق ثرى قتله السأم يريد ان يملأ فراغه بشىء ما ولو كان شرا فتحداها ان تظهر قدراتها ، فحبســنت عنكبوتا ساما فى آنية زجاجية (برطمان) مع تمثــال من الطين على هيئة هذا المستهزىء الساخر وأودعته بعضا من شعره وأظافره . ولم يحدث شىء ، ثم اضــطرت الساحرة الى السفر الى سويسرا لبعض الامور العاجلة، وبينما هى هناك وصلتها برقية تفيد ان صديقها هــذا فى المستشفى على وشك الموت ــ فيما يبدو ــ بالسرطان

فاتصلت من زيوريخ بالتليفون لتقوم بعمليةانقاذ ، وامرت خدمها بأن يقتحموا المعمل ، فوجدوا ان العنكبوت الذى كان على وشك الموت جوعا داخل البرطمان قد قرض طريقا عميقا الى داخل التمثال ، ربما سعيا وراء قطع الاظافر ، فأمرت الساحرة خدامها النوبيين بأن يغسلوا التمثال فى ماء النيل تحت ضوء القمر (وكان القمر لحسن الحظ مكتملا) فما أن تمت العملية حتى شفى صديقها الضحية فى الحال

والطبقة الوسطى غالبة ايضا على الشاطىء الغربى للنيل عند محافظة الجيزة ، تحيط هناك باحدى مؤسساتها – وهى الجامعة – وكذلك غالبة هى على مصر الجديدة والمعادى ، وكانت الضاحية الاخيرة خالصة لسكنى الأوروبيين ، اما اليوم فان العنصر المصرى شائع فيها ..

وعسير عليك اليوم أن تجد من يتحمس للمصريين من الطبقة الوسطى ، هم اليوم على غير ماهم عليه ، وانت اذا اعربت عن ازدرائك بقيم الطبقة الوسطى ستجد كل فرد من أفرادها فى القاهرة يوافقك على رايك ، هذا مع الاعتراف بأن التحمس لجماعة دون تفرقة بين أفرادها لا يخلو على أية حال من تحيز متفضل ، فالذى يقول انه متحمس لفصيلة من الكلاب لا يختلف عنه من يقول انه متحمس للزنوج . والطبقة الوسطى فى القاهرة – كالشأن بها فى كل بلد – هى منبت افراد للامة وهذا هو مبرر وجودها . وأشخاص رواية « الرجل الذى فقد ظله » – وتجرى حوادثها فى حى قاهرى–يصفهم مؤلفها فتحى غانم تعميما بأنهم قساة و انهم جديرون بالسخرية والرثاء معا ، ولكنهم شهود على القرن العشرين فى كل

مكان ، وليهنأ القـــارىء الاجنبي اذا لم يجد نفســـه صورة اخرى من هذا الانتهازى المجرد من البطولة الذى جعله المؤلف بطل روايته . وهذه الرواية ـ ومفهاكتابات اخرى عديدة ـ تعبر عن عقائد طبقة خلعتعنهاقيمالماضى وازياءه . وقد وصف فتحى غانم حادثا بقى فى ذاكرته منذ طفولته كحادث هام ، حين تحدث عن أبيه القـروى الذى كان اول فرد فى الاسرة خلع الجلابية ، فانأباه هذا ذهب الى طبيب ليمحو بالكى آثار وشم على يده ، وكان الصبى يعجب بهذا الوشم واحزنه ان تختفى عن يد أبيه رسوم الثعابين والتروس ، فلما كبر الصبى أدرك انهذا الكى فى غير ضرورة هو رمز مأسوى لطبقة تبدت معايير قيم تقليدية من أجل قيم جديدة تكاد تكون غير مقنعـة لهم بعد ..

وسواء كان هذا التحول صوابا أو غير صـــواب فان تطلعات الطبقة الوسطى ـ على كل حال ـ هى التىتحدد للعاصمة رسمها ، فذوق هذه الطبقة هو الفيصـــل : أى المبانى يهدم وأيها يبقى وايها يقام . وتدشين انتصـــار الطبقة الوسطى على نظام الحكم السابق تمثل فى انشـــاء كورنيش النيل بامتداد ٢٥ كيلومترا ، فقد ظل هـــــذا المشروع موضع بحث طال سنين عديدة ، ثم اذا به يتم تنفيذه خلال أسابيع قليلة ، والان يتمتـع المصريون من جميع الطبقات بهذا الكورنيش الذى يعد حقا رئة جديدة للعاصمة ..

وتهيم الطبقة الوسطى بما هو ضخم ، حديث ، مريح ، فهاهو مبنى التليفزيون بطوابقه الثلاثين له اشعاعصورة الحياة عند الطبقة الوسطى لمن يملكون اجهزة التليفزيون أو لمن يتحلقون حول شاشته المقامة فى الميادين العامة .

وقد قدمت قنواته خلال سنة ١٩٦٤ برامج ترفيهيـــة وتثقيفية استغرقت ١٣٧ ساعة و ١٦ دقيقة

وكذلك برج القاهرة ، انه خارج من احضان الطبقــة الوسطى ، وقد وصفته احدى النشرات الحكومية بأنه من روائع المعمار الاسلامي الحديث ، ولكنه يشبه ســـلة مهملات الورق ، ضخمة متعالية ، وفي سطحه مطعم دوار يتحرك على عجلاته الصغيرة تحرك قطار بطيء جدا بحيث ان الذين يتناولون فيه ــ وسط جو من المرح ــ وجبــة كاملة (حساء ــ لحم ــ فاكهة) اذا رفعوا ابصارهم عن طبق «السكالوب على طريقة فيينا » رأوا ان المنظر قد تبدل كل التبدل ، اصبحت الاهرام على يسارهم حيث كانت القلعة من قبل تلوح لهم كأنها لا تتحرك

الفصل السادس

القاهرة .. والأرستقراطية

لم يكن للطبقة الوسطى قبل خمسة عشر عاما أية سطوة ولم يحظوا بالسكنى فى المبانى والشقق الفخمة الا قليلا ، فقد كانت موجودة وقتذاك أرستقراطية يحسب لها كل حساب فبيدها زمام الامور . ومنذ سنة ١٩٥٢ سافر الى الخارج معظم الارستقراطيين والاقطاعيين ، وفضل من كان منهم من أصل تركى ، دون أن يكون منتميا الى العائلة العثمانية المخلوعة ، الاقامة فى تركيا ــ واختار آخرون سويسرا أو فرنسا أو ــ كما فعل الملك السابق فاروق ــ مونت كارلو . وفضل البعض البقاء بعيدا عن الاضواء ماستطاعوا بمعاش ضئيل (وذلك فىحالة الامراءوالاميرات السابقين) أو بما بقى لديهم بعد التأميم والمصادرة . واستمر البعض فى شغل القصور الجميلة التى تحوى اثاثاتهم يستعملونها كيف شاءوا بدخلهم الضئيل . وأبدعت سيدة مجتمع سابقة قطعا فنية رائعة من تجميع قطع الزجاج الفاطمى أو من قطع اشفال العظم القبطية التى يمكن اقتناؤها من محال بيع القطع الاثرية والانتيكات ، وشتان بين ما تبدعه وبين ما يصنع بالجملة لافواج السياح، ويتحول نتاج ما تصنعه الى احدى الجمعيات الخيرية القبطية . ويعزف امير سابق أنغام شوبان فى الاستقبالات المحدودة من أجل البر أيضا . ولا يتصور كثير من هؤلاء

الارستقراطيين الذين بقوا كيف يتركون مصر ، فهم مخلصون لها بحماس يعسر دائما ادراكه ممن احتلوا أماكنهم ..

ويسكن فى جاردن سيتى أثرياء الاقباط ، وكثير منهم اقتنى الكتب الانجليزية وتخلق بالمعيشة الانجليزية ، ويأخذك العجب وقليل من الحزن أيضا وانت تزورهم فى غرف مكاتبهم .. التى رصت جدرانها بالكتب عندما يسألونك بذهن شارد عن اسم كان ملء الافواه فى عالم الادب أو عن « زيد » أو « عمرو » الذى كان يشغل مركز نائب دولة أو سفير ثم بات فى هامش الحياة

وقد نبذ الاقباط الاسماء الانجليزية واختفت أسماء مثل وليم وجفرى وسسل ، وحل محلها أسماء أكثر فطنة مثل « توفيق » أو حتى « جمال » وهى مداولات غير محددة تنفع للمسلمين والاقباط على السواء

الفصل السابع

القاهرة .. الطابع النوبي

والنوبيون طبقة اخرى ليس لها طابع غالب على المجتمع فى القاهرة مع أن آثار بلادهم هى محل اهتمام السياح ، ووسامة ملامحهم تستأثر بشغف الفنانين والمصورين الفوتوغرافيين . وليس هناك شارع معين تقصده فتجد عنده النوبيين ، بل هم يشاركون المهاجرين من القرى سكنى حى قد لا تلحظه عين القاطن العابر فى فندق هيلتون أو شبرد ، وانا نفسى لم أنتبه لوجود هذا الحى العجيب الا حين كنت اقيم فى بنسيون فى الطابق الثالث عشر من عمارة تكاد تكون من ناطحات السحاب ، فقد استيقظت ذات صباح على صياح ديكة وثغاء غنم ، فلما خرجت الى الشرفة واطللت منها رأيت قرية متناثرة على الاسطح المستوية للمبانى المجاورة ، اذ هى تزيد فى ارتفاعها عن ستة طوابق ، وتتكاثر فيها . تقليدا للفن الحديث . زخارف من المعدن والجص اى أن المنطقة تقابل شارع اكسفورد فى لندن . وجدت من تحتى بط يبطبط ، وأغناما تلوك حزما من البرسيم ، ونساء فى ملابس سود تمد أيديهن الى أقفاص الدواجن لتخرج بفطور عيالهن (والبيض فى القاهرة بيض بدارى الدجاج فيلزمك اربع منها لكى تصنع لك عجة) . فى كل قرية من هذه القرى المتناثرة على الاسطح يعيش البوابون — وهم فى مساكن القاهرة من

علاماتها المتميزة ـ فانك لابد واجد عند مدخل كل عمارة بوابا ـ واحدا على الاقل ـ جالسا على دكة ، يلاحق بنظره الداخلين والخارجين ، وفى أغلب الاحيان يكون مع رفاق له ، والنوبيون يحبون المؤانسة . انهم يأتون من هـذا الوادى الضيق ما بين أسوان وشمال السودان ، وقراهم تمتد طولا ، النيل هو شارعهم الرئيسي ، بيوتهم فسيحة ، نظيفة ، طليقة الهواء ، جدرانها مزينة برسوم من صنـع أيديهم ، ما من باب عليه قفل ، فليس هناك سرقة ، وليس هناك زنى ، ويعترف القاهريون بأمانة النوبيين ويرونها سبب استخدامهم بوابين . ومع كل هذا فقد احتجت الحكومة السودانية لدى منتجى السينما المصريين لانهم يظهرون الشخصيات ذوى السحنة السمراء فى دور الخدم دائما ولم يظهروهم سادة مطلقا

وتتصف القاهرة بقدر عظيم من التسامح . قد يحدث اشتباك بين خواجه ومسلم وبين مصرى حنطى اللون وآخر من أبناء السود ، ولكن لا يكون هذا الاشتباك بسبب نفور جنس من جنس . وبعض دروب القاهرة تشبه حى هارلم فى نيويورك ، ولكن بدون حزازاته ، وان كان السودانيون يتجمعون فى مقاه خاصـة بهـم فليس مرجع ذلك أنهم معزولون عن المجتمع ، بل الى اختيارهم هم أنفسهم لهذه المقاهى ، شان المقهى التى تجدها فى كل مدينة وقرية كبيرة فى وادى النيل فيها أبناء القاهرة المغتربون عنها

الفصل الثامن

القاهرة.. منازل الأموات

وفى أطراف العاصمة قطاع تقطنه الاغلبيـــة العظمى . يقطنه الاموات . انها مدينة أو قل ضاحية ان شئت ، تمتد وتستدير مع مدينة الاحياء ما بين شوارعها المزدحمة وتلال المقطم ـ تلك الخـرطة المقسمة دروبهـا تقسيمـا هندسيا تتبين لك اذا وقفت عند مسجد الجيوشى فوق القلعة من أعلى الحصن الذى قد قذف منه نابليون بقنابله العاصمة الثائرة . انها ليست أرض الجبانة وان كانت القبور جزء منها ، بل هى مدينة مسطحة وحشية اللون ، لها هى أيضا شوارعها ، وعلى بيوتها ارقام كأنما تنتظر مع الصباح موزع البريد ، ولكنه اذا دق الباب لن يفتح له أحد ، فاذا دفعه دخل الى مأوى كأنه مسخ للمعتاد من مساكن الاحياء : حجرتان متجاورتان على أرضها بساط من التراب . وفى كل منهما نصب مستطيل من حجر او جص ، وتحت أرض احدى الحجرتين يرقد الذكور من أموات الاسرة ، عزلهم الموت عن الاناث المدفونات فى قبور الحجرة الاخرى . ويسجى الميت على لوح من الحجر ، مكفنا ولكن بلا ناووس . ومتاح لك زيارة مقابر المماليك، حكام مصر خلال ستة قرون ، وزيارة المسجد الذى يضم وفات سلالة محمد على ، ويرجع عهده الى القرن التاسع عشر وله زخارف كثيرة

وأعرف فتى مصريا ولد ونشأ فى أمريكا ، ذهب أخيرا الى مقبرة أسرته ليحضر دفن عمته ، وكان لم يألف بعد عادات بلده ، فركبته الحيرة حين اقترب منه أحد أقربائه وقال له فى اهتمام خاشع انه أتى اليه من بعد ان القى السلام على أخته . لم يفهم قوله أول الامر ثم أسعفته ذاكرته وأدرك أن محدثه يعنى أختا له ماتت فى طفولتها قبل مولده ، انها كانت راقدة فى قبر الاسرة طوال السنين وتزار هى أيضا

أما الذين ينكرون دوام الصلة بين أهل القاهرة اليوم وأهل منف من قبل اربعة آلاف سنة ، فان فى مدينة الاموات التى وصفتها ما يكفى للرد عليهم . كان الرومان يحرقون موتاهم ، والاغريق يدفنونهم خارج المدن على قارعة الطريق ، أما الدين الاسلامى فمن سنته دفن الميت فى قبر لا حد لبساطته حتى أنك تستطيع بيدك أن تسويه بالارض (قبر الملك عبد العزيز آل سعود مع أنه توفى منذ عشر سنوات فحسب لم يعد الان فى الرياض من يذكر أين هو ولا بقى من يزوره)

وتنفرد القاهرة دون بقية عواصم الاسلام بنظامها هذا للمدافن وما يستتبعه من واجبات ، ففى الايام المشهورة على مدار السنة — كأيام العيد الصغير الذى ينتهى اليه شهر الصيام ، وايام العيد الكبير الذى يحتفل عنده بوصول الحج الى مكة — تحتشد الناس وتتوافد على مدينة الاموات ، يحمل كل منهم سلة بها طعام كأنه خارج الى نزهة ، متلهفا على زيارة أفراد أسرته الذين صاروا عاجزين عن لبس الاثواب الجديدة فى العيد او التمتع بالفسحة وشم الهواء . وكان هذا هو الشأن ايام الفراعنة فى مواسمهم أيضا ، وان اختفت اثنتان من عاداتهم — الان لا تحنيط

للموتى ، والدفن فى الضفة الشرقية من النيل حيث تشرق الشمس ، أما عند الفراعنة ـ اللهم الا أيام هرطقة اخناتون ـ فقد كان الميت يدفن ـ بعد تحنيطه بنفقة باهظة أو متواضعة وفقا لدخل الاسرة ـ فى الضفة الغربية من النيل ، حيث مملكة أوزيريس

وكان لصوص المقابر من المشكلات الدائمة للفراعنة ، وما الاهرامات والقبور الغائرة فى الصخر الا محاولات لتضليل هؤلاء اللصوص . وأهل القاهرة يعانون منهم اليوم أيضا ، شأنهم شأن أجدادهم . وهناك قوة من الحرس تجوب المقابر ، من أجل أفرادها ومن أجل أسرهم ايضا ، قامت متاجر صغيرة تبيع الشاى والادوات المدرسية . وبعض الغرف المبنية فوق المقابر قد اتخذها الناس مساكن لهم ، ولكن بالرغم من قوة الحرس وبالرغم من الغول الذى تقول الاساطير انه يسكن فى ظلام المقابر ، فان كثيرا من الاسر تعمل المقص فى أكفان موتاهم حتى لا تبقى لها قيمة تغرى بالسرقة

الفصل التاسع

القاهرة .. ظلال من مقدونيا

تتميز القاهرة عن بقية مدن افريقية (وعن سائر مدن آسيا بالنظرة ذاتها) بأنها ظلت منذ مطالع القرن التاسع عشر عاصمة قطر ، أيا كان هو ، فانه متقارب من الدولة الحديثة . وليس من قبيل الاطراء خلعنا هذا الوصف عليها ، فالدولة الحديثة تجمع بين ما هو طيب وما هو غير طيب . يكفى القاهرة أنها تضم ٣٠ محكمة بها ٦٥٠ قاضيا ومستشارا و ٣ سجون بها ٨ آلاف من النزلاء و٦٥ مستشفى بها ١٣٫٠٣٢ سريرا وما يزيد عن ١٫١٠٠ من شرطة المرور ، ليقال ان هذا كله لا يعكس انها عاصمة فحسب ، بل عاصمة تأخذ بالنظم الحديثة ، وهى أيضا فريدة فى أنها تمثل مجتمعا شرقيا فى صراع دائم مثمر مع الغرب ، لا تنازعها فى ذلك مدينة استانبول (وهى مدينة لابد أن يقال عنها انها غربية فهى مقامة فى أوروبا) فان القسطنطينية كما عرفها القرن التاسع عشر قد شهدت هذا الصراع ذاته ولكنه انتهى بالانسحاب ، فقد نقل كمال اتاتورك عاصمته الجديدة الى بلد صغير فى قلب الاناضول ، ولا احد فى مصر (اللهم فى شهر اغسطس حين تصبح الاسكندرية بمثابة العاصمة الثانية) يتبادر الى ذهنه التخلى عن القاهرة

وعلى مدى قرن ونصف ـ ما بين نابليون وجمال عبد

الناصر ـ تولت حكم مصر سلالة اجنبية واحدة بلغ من تتابع توارثها ان أصبح يطلق عليها ـ تفخيما لها ـ كالشأن مع بيوت الملك العريقة وفى التاريخ للعهد الفرعونى ـ اسم « الاسرة الحاكمة » ومنشىء خطوط هذه السلالة رجل مسلم من مدينة قولة فى مقدونيا بشمال اليونان ، وكذلك الى مقدونيا ينتسب منشىء الاسكندرية العاصمة المتلألئة لمصر البطالسة ، وبعد ان انحدر حالها وانكمشت واصبحت قرية صيادين لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف ، أعاد اليها محمد علي ـ المنتسب الى مقدونيا ايضا ـ ازدهارها، ولكنه اتخذ من القاهرة عاصمة لملكه . وكان حين مجيئه الى مصر من أتباع السلطان العثمانى ، وبتكليف منه لصد زحف نابوليون ، ولكنه قلب تبعيته الى نظام حكم مبتدع فريد اذ أصبح يخص نابوليون باعجابه الشديد ، وتعاون أسلوب الثورة الفرنسية وأسلوب حكام الاقاليم المتخلفة فى تحطيم المماليك فى مجزرة وحشية انقسم امتدادها الى مرحلتين ، الاولى تولاها نابوليون بالقرب من قرية امبابة (التى اندمجت فى القاهـرة الكبرى اليوم وبهـا مسرح البالون) فقد احاطت جنوده من حملة البنادق بالامراء الشجعان الذين حكموا مصر لستة قرون ، وفر من نجا من المعركة الى صعيد مصر والسودان ، انتظارا ـ هكذا ظنوا ـ لعودتهم الى مناصبهم واملاكهم يوم يرحل نابوليون الى باريس . ولكن محمد على ـ وهو فى بعض الاعتبار آخر المماليك وانجحهم ـ دعا بقيتهم الى حفل فى القلعة وفتك بهم هناك . ونستطيع اليوم أن نشهد موقع هـذه المذبحة ، انه الممر الضيق المؤدى من القلعة الى باب العزب . وكانت نجاة واحد منهم واسمه حسن بك من المواضيع التى هام بها المصورون فى القرن التاسع عشر

فرسموه ، وفقا لاسطورة شائعة ـ وهو يقفز بجواده من شرفة القلعة هاويا الى الارض . ولكن الحقيقة هي على خلاف الاسطورة ، وان كان قد نجا فبفضل مرض أقعده عن حضور الحفل . واستمر القتل أيضا فى المماليك الذين كانوا متفرقين فى ارجاء مصر .. فمن هم هؤلاء المماليك ؟

انهم فى الاصل رقيق أبيض من شراء حكام مصر ليتولوا حراستهم . وكما حدث فى الامبراطورية الرومانية من تحول قادة الجند عن حراسة الامبراطور الى التسلط عليه يخلعونه متى شاءوا ويقيمون من شاءوا بدله ، فان هذا الحرس من المماليك المرتزقة بسط سيطرته على حكام مصر . وقد جاء هؤلاء المماليك من الاطراف الشمالية الشرقية لدار الاسلام وبخاصة من القوقاز وتركستان ، وكانوا يتصفون بالهمة والحماس ، وأحيانا بالتقى والورع ، وأحيانا بالانتهازية الكلبية ، ولكن محال وصفهم بأنهم مصريون . ورأس المماليك يصبح هو السلطان ، منصب قد ينتقل بالوراثة من أب الى ابن ، ولكن كان من المحبب لهم فى المعتاد أن يتبنى السلطان مملوكا أثيرا عنده ، وكان هذا المملوك اما يقتل سيده أو يتآمر له ويحل محله حين يقتله مملوك غيره . ويمكن القول بأن نظام المماليك يرجع مبدأه الى عهد صلاح الدين وهو كردى من ابناء القرن الثانى عشر ، فانه أقام هو وخلفاؤه نظام حكم أشبه مايكون بنظام الحكم الاقطاعى فى الغرب ، ولو أن فرق الجنس بين المماليك ورعاياهم من الفلاحين الصابرين سكان وادى النيل قد جعل هؤلاء المماليك أقل من بارونات القرون الوسطى فى فرنسا وانجلترا اهتماما بالحقوق الديمقراطية ، وان أخطأنا عمدا فى حق التاريخ فأجزنا استخدام وصف الديمقراطية لعصر سابق لعصرها . ولما انهزمت مصر أمام

الاتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ وشنق طومان باى آخر سلاطينها على باب زويلة قام الظن لبرهة بأن دولة المماليك قد دالت ، على يد غزاة لايقلون عتوا عن التيودور فى غزوهم لانجلترا ، ولكن أعباء هذه الامبراطورية التى اتسعت فجأه ثقلت على الاتراك فرأوا من الاصلح أن تكون مصر بقرة يتولى المماليك حلب ضرعها لهم ، فبقيت هذه الزمرة متربعة على مقعد الحكم الى نهاية القرن الثامن عشر وان بقى لموظف تركى سيادة اسمية عليها

ومن تركة المماليك التى أورثوها للقاهرة شيئان : هذه العيون الزرق والخضر فى بعض الوجوه السمر ، وهذا الحشد من الصروح الفخمة : مدارس ومستشفيات وفوق هذه وتلك مساجد بقبابها التى تتميز بها مقامة فوق قبورهم ، كأنما انتقل اليهم بالعدوى من روح مصر الفرعونية هذا الحرص المستهام بضريح لائق بالرقدة الابدية ، وهكذا أضفى الرواد على عاصمة دولة انكمش عدد سكانها من ٨ الى ٢ مليون نسمة، فالقاهرة التى انتقلت من يدهم الى يد نابليون والى يد مريده المقدونى لم تكن الا نتفة صغيرة من قاهرة اليوم . ويرجع الفضل فى اتساع هذه المدينة الى أسرة محمد على ، وان تسعة أعشار رقعتها لم تعرف العمار الا بعد انقضاء عهد المماليك

ولم يشعر محمد على فى قرارة نفسه أنه مصرى قط ، ولو ان ابنه ابراهيم ـ هذا الجندى الصارم ـ كان يحس أنه قريب الى أبناء العرب سمر الوجوه ، شأنه فى ذلك شأن لورنس ، اذا راعينا واجب تبديل زمن بزمن . وكان محمد على يتكلم التركية لا العربية ، ويعد نفسه عثمانيا لا مصريا ، ولا حتى من مقدونيا . وكان له ـ كما للملك عبد العزيز آل سعود ـ وفرة من الاولاد ، ولكنه كان

فى نفس الوقت من المعجبين بالمدنية الغربية الحديثة واراد أن يقتبس كل تطبيقاتها فأنشأ الالات البخـــارية وبنى الفنارات . والطابع الذى خلفه على مدينة القاهرة يستمد اشعاعه من القلعة ، اذ شيد فيها قصره ـ قصر الجوهرة ـ بالقرب من باب العزب حيث تدوى صرخات أشباح المماليك الذين ذاقوا الموت ذبحا . وبجانب من قصر الجوهـرة مسجده المقام على قبره ، وهذا المسجد لا يعـد فى نظـر عشاق العمارة الاسلامية فى القاهرة من أفضل نماذجها ، شأن دار الاوبرا فى باريس بين مثيلاتها . وبرغم أنه من طراز مستلهم من تركيا لا من مصر فانه ـ فى عاصمة مصر ـ يطفى على أفقها الشرقى

وأوصل محمد على الاسكندرية بالقاهرة بحفره ترعة المحمودية ، وبنى القناطر الخيرية عند عنق الدلتا ولكنها ـ كالشأن فى أغلب منجزاته ـ كانت مهتزة الدعائم ، فلم يتم لها رسوخ الا فى التسعينات من القرن الماضى . وفى قصر الجوهرة لوحة تصور مجدد مصر وهو قاعد ، كمـا نجده قاعدا فى الصـورة القلمية التى رسمها له روبرت كيرزون . قال :

« وجدنا الباشا حين لقيته شيخا عفيا متين البنيان ، عريض الكتفين ، عريض صفحة الوجه ، واسع انفتـــاح المنخرين ، تضفى عليه نظرته الحادة الوثابة هيئة أسـد أغبر هرم . تحدثنا ثلاثة أرباع الساعة على مدى امكان مد السكة الحديدية بطول برزخ السويس . وكان هذا المشروع أكبر هم يشغل باله حينئذ . ولكن الحادثة التى سجلت هذا اللقاء بقوة فى ذاكرتى والتى دهشت لهـــا لانها تمثل عادات تختلف عن عاداتنا كل الاختلاف لم تكن فى ذاتها الا حادثة هينة ، فقد رأيت الباشا يطلب منديله

فأخذ يبحث عنه فيما حوله ، ثم ينقب فى جيوبه ، فلم يجده . وكان اثناء بحثه لا يكف عن التعبير عن دهشته وحيرته بهتافات مختلفة ، استجاب لها اخر الامر خادم سعى اليه من أقصى الحجرة وقال له «ابحث عنه فى جيبك الآخر » فأجابه الباشا « فعلت فلم أجد فيه منديلى » رد عليه الخادم « اذن عد الى البحث عنه فى جيبك الاول» فلما اجابه الباشا « ليس عندى منديل » أو بكلام من هذا القبيل ، كان الرد السريع الذى أتى اليه من الخادم «بل عندك منديلك» وتكرر القول والرد « ليس عنـــــدى منديل » ـ « بل عندك منديلك » وانتهى الامر بأن تقدم هذا الخادم الى الباشا واخذ ينقب فى جيبى سترته دون ان يجد المنديل ، فأخذت يده تدور حول خصر الباشــا يتحسس المنديل فلعله قد طواه طرف الشال الذى يتلفع به ولكن بلا جدوى ، حينئذ امسك الخادم بسيده مولاه وأماله الى اليمين فوق الأريكة ونظر تحته ليرى ما اذا كان قد قعد على منديله ، ثم عدله وأماله من جـــــديد الى اليسار ، وظل الباشا طوال هذه المناورة العجيبة على أتم ما يقدر عليه من هدوء واستسلام ، ثم دس الخـــادم ساعده الى الكوع فى احد جيوب سرواله الكبير المنتفخ واخرج علبة نشوق ومسبحة واشياء اخرى صفها على الاريكة ، ولكنه لم يجد المنديل ، فانتقل ساعده الى الجيب الاخر ومده الى عمق مهول حتى اخرج من قاع الجيب المنديل المفقود ، وفى حركة ملؤها التوقير والتجلة دفعه بقوة الى يد الباشـــا ثم تراجع الى الطرف القصى من الحجرة حيث كان »

هذا وصف جدير بالاستعادة ونحن نستعرض ماكان لهذا الرجل العظيم من أثر ووقع على العـــاصمة التى

اغتصبها ، وكذلك ونحن نستمع الى الهجوم عليــه من المنادين بالوطنية الحديثة . قد يكون محمد على نهــازا للفرص ، يمضى الى غاياته بلا رحمة ، وقد تكون اصلاحاته سابقة لاوانها ، ضحضاحة لانها انبعثت من دوافع باطلة ـ اذ كان يطمع ان يجعل من مصر قاعدة لامبراطــورية يقيمها لشخصه ـ ولكن رجلا له مثل هذا المسلك السمح وهذا التحرر من مراسم المنصب الرفيــــع خليق بأن يستجيب المصريون لسحره ، ومثل هذه الخلال لاتزال الى اليوم فى جميع البلاد العربية هى التى تمهد لحكامها طريق النجاح

لم يرث احد من ابنائه عبقريته وانتماءه للشرق وقد وجد اسمه اسوأ تخليد له فى القاهرة « فان اسماعيل هو الذى أطلق اسم محمد على على شارع شقه فيها بتأثير من ذوقه الفرنسى ، فجاء اشد شوارع العاصمة دمامــــة واجتراء فانه هتك احشاء حى من اجمل احياء القاهرة، وهدم قصورا وأزال حدائق وقوض جانبا من مســـــجد عتيق لا لشىء الا لكى يسلم للشارع تمام امتداده عــــلى خط مستقيم ، وهذا حرص سخيف عديم الذوق » هكذا قال ستانلى لين بول . ولكن ما يشفع لهذه الفعلة النكراء من اسماعيل هذه البواكى التى تجعله شبيها بشــــارع ريفولى فى باريس . ولما جاء عصر فاروق حفيد اسماعيل أصبح الطابع الشرقى لشارع محمد على ينم على التخلف وانقطع انتظام البواكى ، فاختفى اكثرها واصبح جريحا متناثرا ، واصبح ـ باسمه الجديد شارع القلعة ـ من اقبح الشوارع فى مدينـــة جميلة

وحين ضاق أهل القاهرة ذرعا لخضوعهم لحكم سلالة محمد على . كان مطلب ثأرهم عند قصــــورهم ، فقصر

عابدين ــ وهو من طراز قصر بكنجهام وصورة مصغرة منه ــ يطل على ميدان كبير . هنا كان لتوفيق بن اسماعيل نقاش مثير مع الضابط عرابي ــ مثيل عبد الناصر فى الثمانينات من القرن الماضى ، اصبح الان يسمى بميدان الجمهورية وينقلب الى سرادق مكيب مهول تنصت فيه الجماهير الغفيرة الى الخطب احتفالا بعيد الثورة فى شهر يوليو من كل عام ، اما القصر ذاته فقسم منه تشغله احدى الوزارات « وزارة الاصلاح الزراعى » وقسم آخر يحتله ناد للشباب ، وقسم أفرد ليكون متحفا . وقد بيع اغلب أثاثه الفاخر ، وما بقى منه ينم عن ذوق اسماعيل الذى كانت مخصصاته من خزانة الدولة تفوق مخصصات الملكة فيكتوريا ، ولا تزال معلقة على الجدران لوحات زيتية تمثل زوجات اسماعيل مرتديات ملابس عقيلات طبقة السادة فى اكسفورد ، وبقيت الادوية فى الحمام الملكى كما تركها فاروق عند تنازله عن العرش ، وبقى الميزان كذلك ، ذكرى حزينة لبدن يود ان يذوى كما ذوت سمعة صاحبه . اما القصر الذى احتفل فيه اسماعيل بالامبراطورة الفرنسية ايوجنى فكان لمدة طويلة مسكنا فى المدينة لاسرة مسيحية من الصعيد ، هى اسرة لطف الله ، وبقى القصر بقدر ما كما كان ، وان اقيمت على أرضه شاليهات مترفة

وقصر الامير محمد على (ولى العهد الى أن رزق بولد من زوجته الثانية ناريمان صادق قبل خلعه بقليل) قائم الى اليوم بجزيرة الروضة ، من وراء اسواره العريضة دروب يحفها نبات الصبار او تظللها اشجار البانيان ، لا ينساها من يجوس خلالها ، تصلح ان تكون مسرحا لفيلم سيريالى أن صنعت هذه الافلام فى مصر . وبالقصر

مجموعة ضخمة من صور فوتوغرافيـــة لملوك الدول ورؤسائها عليها توقيع اصحابها ، وفقا للمراسم . وينقلب طابع القصر المستلهم من ذوق دمشق الى طابع عهد ادوارد فى انجلترا اذا انتقلنا الى الحمام ورأينا من خزفه زخارف على هيئة ازهار . واقام الامير على ارض قصره متحفة وهو خير مكان تستعرض فيه السجاد الشرقى ، ولوحات الملوك ورؤساء الدول ، والمصاحف المزخرفة ، واشيـاء اخرى ثمينة من جمع امير شرقى مطلق السلطان

وهذه الفقرة التى كتبتها لها صدقها ، ولكن السرعة التى يتصف بها تغيير الأحوال فى الشرق الجديد مالبثت ان جعلت كلامى محمولا على الماضى ، فقد علقت على باب القصر لافتة بأنوار النيون تعلن انه هو ايضا اصبح فندقا باسم « عمر الخيام المنيل » وقطعت الشاليهات امتداد حدائقه ولم يعد فى الامكان صنع فيلم سيريالى كالذى تحدثت عنه فإن نبات الصبار قد اذبله غشيان السياح لدروبه وان كنا ــ أنا وانت ــ لم نهضم بعد نصيبنا من متعته . وهكذا انقشع السحر على رنين العملة الصعبة

ولن تجد فى القاهرة من يغضب لتراث القرن التاسع عشر وهو يتعرض للزراية به والترحيب بتقويضه ، وهذا حال يدعو للاسف ولو انه مفهوم . فاذا كان هذا التراث يعد فى نظر الانجليز فى بلادهم منحدرا عن عصر الملكة فيكتوريا عصر القوة السيادة ، فانه فى نظـــر المصريين ينحدر عن عصر اسماعيل وتوفيق عصر الضعة والمهانة . أما ابراهيم فلانه قائد عظيم فهو لايزال يحتفظ بنصيب من الاجلال كما يحتفظ بتمثال له امام دار الاوبرا نراه فيه فارسا مهيبا ممتطيا جواده ، على حين ان سليمـان باشا ، هذا الفرنسى الذى اعتنق الاسلام واصبح معروفا

ـ إلى جانب ما يعرف عنه ـ بانه ايضا جد نازلي أم فاروق فقد استمر تمثاله ـ الذى يمثله بسراويله الواسعة وبطربوشه ـ قائما حتى سنة ١٩٤٦ ثم أزيل من الميدان القريب من محل جروبى حيث كان يعطى ظهره للسيدات البدينات المندفعات صوب الشيكولاتة ، ومن حل محله؟ تمثال باهت الشبه بطلعت حرب مؤسس بنك مصر

والذين يهيم ذوقهم بعطر الماضى الحديث هيهات ان يجدوا لهم غنيمة تفوق غنيمة زيارتهم لمتحف السكك الحديدية بالقاهرة ، ما دام باقيا . انه منزو بالقرب من محطة باب الحديد ويضم ثروة كبيرة من النماذج والصور الفوتوغرافية ، تشهد باستباق مصر لدخول عصرالسكك الحديدية فى وقت مبكر . وقد وصفت لك من سابق محمد على وهو يباحث كيرزون فى مد خط حديدى ، وقد تم مد خط بين القاهرة والاسكندرية سنة ١٨٥٦ . ويحتفظ المتحف فى احد مخازنه الجانبية بالقطار المسمى «بالكشك» الذى كان مخصصا لسعيد باشا والى مصر الذى أعطى الاذن بشق قناة السويس ، انه بين القطارات عديل سيارة رولز رويس بين السيارات وهو من انتاج مصانع ستيفنسون .. أول المصانع فى انشاء السكك الحديديه اطلاقا ـ وتم تسليمه سنة ١٨٢٦ . وقد طلى القطار من الخارج بالوان زاهية جعلته براقا كقطع الكريستال البوهيمى ارضاء للذوق الشرقى ، وفرش داخله بالطنافس فامتزجت مع الآلات الملمعة امتزاجا غريبا . وكان سعيد باشا ـ الذى كان بين أفراد اسرته الذين لاتنقصهم البدانة اكثرهم امتلاء ـ مشهورا بانه كان يقود هذه القاطرة بنفسه فى زياراته لاقطاعات اقاربه واصدقائه

اما عمران القاهرة فالفضل الاكبر فيه راجع الى

اسماعيل . تدين له احياؤها السكنية الجديدة بنصيبها من رواد المعمار الايطالى ، واحيانا بنصيبها من رشاقته أيضاً . من اجل اسماعيل جرى اطلاق اسمه على هذا الميدان الواسع الذى كان فيما مضى تشينه الثكنات البريطانية فتحول الى منظر فخم باقامة فندق الهيلتون مكانها . ولقد اقيم فى سرة هذا الميدان قاعدة تمثال حمراء اللون استمرت خاوية ولن يعلو قمتها تمثال اسماعيل وبذلته الرسمية ، وتبدل اسم الميدان من ميدان الاسماعيلية الى ميدان التحرير

اما دار الأوبرا فهى الى اليوم درة منجزات اسماعيل ، بنيت على عجل من الخشب والجمص لتلحق افتتاح قناة السويس ، ولكن تعجل الحاكم الشرقى لم يجد مجاراة له عند الملحن المكلف باعداد اوبرا عايدة لليلة الافتتاح ، فلم يستطع فردى اتمامها ، ومثلت بدلها أوبرا «ريجوليتو» . وقد حضرت يوم ٢٨ ابريل سنة ١٨٦٤ أداء بديعا لاوبرا «لاترافياتا» مترجمة الى العربية فقدم ابراهيم رفعت نصا بلغ القمة فى قابليته للغناء ، ولكن السيدات اللاتى استضافتهن فيوليتا فى صالونها جئن من عصر أشد ديمقراطية من عصر اسماعيل الذى لايزال الحرف اللاتينى الأول من اسمه محور الزخارف المعدنية المذهبة على مدخل دار الاوبرا

الفصل العاشر

القاهرة .. طابع الأجانب

يجيء الاجانب فى الصف الثانى بعد أسره محمد على، فانهم ـ وربما بتوالس معها ـ حققوا للقاهرة ، ولانفسهم ـ مغانم كثيرة ـ فالبارون هرتز يدين له هـواة الفن بالشكر والتقدير لانه كان بمثابة القلب المحرك للجنة حفظ الآثار الاسلامية ، فلولاه ـ وهذا مثل من عديد ـ لبلى الساتر الخشبى ذو الزخارف الدقيقة فى مسجد المارداني وتحول الى تراب.

وهذا بارون آخر ـ البارون امبان ـ كان الهمة الدافعة لعمران هليوبوليس الضاحية الشمالية للعاصمة ،أنشئت سنة ١٩٠٦ ويبلغ تعداد سكانها اليوم ١٢٢ الفا . وقد انفق البارون امبان أرباحه من شركة الترام فى بناء قصر له على الطراز الهندى ، يعد من اغرب الابنية فى القاهرة، انه من الخارج صورة مطابقة تمام التطابق لاحد معابد مادورا فى الهند ببرجه الشاهق المخروطى وتماثيله على هيئة الفيلة ، وزخارفه على شكل رءوس مفزعة لمخلوقات خليط من حيوان وبشر . اما من الداخل فقد زود البارون قصره بمقاعد وأرائك من ذوق الطبقة الوسطى فى بلجيكا، واتخذ من الشباك سشائر نوافذه . وامبان مثال للمغامرين الاجانب الذى وجدوا فى النظام الاقتصادى لمصر قبل الثورة مرتعا خصبا لهم ، لم يكن بطبيعة الحال محبوبا

لان تشبهه بالامراء لم يأتلف مع سماحة الشرق . وكان يهيم بالمعارك ، ولكنه حظى بصداقة الملك فؤاد ، فترجم هذا العطف الى امتيازات كبيرة غنمها

وهناك ملك آخر شهد كيف يخفق البارون أمبان احيانا قليلة ، فقد سبق له فى الريفييرا فى فرنسا حوالى سنة ١٩٢٠ أن قدمه بعض معارفه الى الملك الفونسو الثالث عشر وهو لايزال على عرش اسبانيا ، ثم قام الملك بعد ذلك بزيارة مصر زيارة خاصة متخذا له اسما مستعارا ، فدعاه البارون الى العشاء فى قصره الهندى، وقبل الملك الدعوة ، ولما اجتاز صفوف الرءوس المفزعة وجد بقية الضيوف جماعة من اصدقاء البارون القدامى، كلهم من محترفى القمار فى النوادى الليلية ، أو من أرتستات الكاباريهات ، وجلس الملك الى المائدة ، وكان جلوسه هو كل شىء فعله ، لم يأكل ، لم يشرب ، لم يتكلم وكفى أن يدوم هذا الصمت خمس دقائق حتى يصبح جيرانه كأنهم خشب مسندة ، ولما انتهى العشاء قام الملك وهو لم يتحول عن صمته وانصرف

ومنذ الثورة لم يفتح القصر الهندى الذى صار مثل فيل اسمر فى حديقة خشنة ماتت أشجارها التى لم تجد من يدفع ثمن مياه ريها . وقد أبدى أحد الامراء السعوديين مرة استعداده لتحويله الى استراحة لزملائه السعوديين عند حضورهم الى مصر للتمتع بجوها ،ولكن المشروع اهمل عندما تبينت السلطات البلدية حقيقة ما اعدت له هذه الاستراحة

ولكن مابقى واضحا من نفوذ الاجانب هى هذه المطاعم والفنادق ذات الاسماء الانجليزية ففى مطعم « سان جيمس » ـ الذى اشتهر وانفرد بتقديم جمبرى البحر

الاحمر ـ يعرض عليك صاحبه بزهو قصاصة ترجع بك الى الماضى ، انها من جريدة « الاجبشيان جازيت » فى عام ١٨٩٥ تقول :

« سيطبق المحل فى مكانه الجديد الى الموسم القادم نظام المعيشة الفردية حيث يجد السادة المقيمون حجرة للنوم مع الافطار تماما كما هو متبع فى حى وست اند بلندن فى المناطق المجاورة للنوادى الراقية الخاصة »

واختفت التقاليد الانجلوسكسونية تماما من فندق شبرد . اللهم الا اسمه ، ويرجع عهدها الى العصر الفيكتورى حين انشأ هذا الفندق رجل مغامر جسور وجعله استراحة للذين ينزلون فى الاسكندرية من سفنهم ويغادرونها بالقطار ليلحقوا ببواخرهم فى السويس . لقد كان فندق شبرد القديم معقلا من معاقل رجال الامبراطورية العظام ، وكانت الجرائد تهتم بنقل كل مايدور فى أرجائه حول اثاثه الخيزرانى ونخيلاته المفروزة فى قصاريها . فمثلا اهتمت الجرائد بحفلة رأس السنة الجديدة لعام ١٩١٥ حيث دار الرقص حثيثا فى القاعة المصرية بالأزياء الغريبة المبتدعة ، وفى نصف الليل

« أعاد صوت تردد فى القاعة بعض الضيوف المجتمعين الى الواقع حيث شاهدوا نموذجا كاملا لطائرة ترتفع بلطف من القاعة الى أعلى نقطة فى صالة الرقص وقد جلس فيها طفل ظريف بأجنحة شفافة وتكلل وجهه ابتسامة وجهها الى الحاضرين جميعا ، واطلقت حمامات تحمل اشرطة عليها التمنيات الطيبة كما قام الجميع برمى كرات ثلجية كتذكارات لطيفة ، ولكنها لم تكن باللينة فى حالة الضابط الصغير الذى طارت كرته داخل القاعة واصابت وجه الجنرال ماكلارن . وكان وقتا عصيبا

سرعان ما خففه الجنرال بكلمة منه رقيقة . واخيرا انتهى كل شيء ونامت القاهرة ملؤها الحيرة والتعب .. والسعادة »

اما عن أثر فرنسا فان لغتها كانت ـ حتى في ظل الحماية البريطانية ـ أكثر تداولا من اللغة الانجليزية ، ولا تزال الليسيه الفرنسية قائمة ، ولا يزال الجزويت يحتفظون بمعاهدهم ، والمجمع العلمي المصرى هو الوريث غير المباشر للمجمع الذي انشأه نابوليون . وهنالك جامعة امريكية ، لا تنفك تتسع ، ويمثل طلبتها بعض مسرحيات تنسى وليامز

وتتناثر في القاهرة بنسيونات متواضعة للاجانب الوافدين من وسط اوروبا ، كصديقى يانكو ، وهو ارستقراطى من سلوفاكيا يهوى الرسم ، ويقطن فى شقة تطل على وزارة الاوقاف . انه يضع على عينيه نظارة سوداء ، ويعيش مع كتبه ومجموعته من نبات الصبار ، ويشرب الزبيب فى شرفة يرقب منها المارة ، ولا يخرج من داره الا ليشترى حاجته من سوق الخضار المسقوف فى باب اللوق أو مزيدا من الزبيب من بقال يونانى قريب من داره ، ولا يفوته حضور افتتاح معارض الرسم العديدة التى أصبحت من سمات حياة القاهرة اليوم . أما رسومه هو فبالالوان المائية على ورق غير مستو ، وله اعمال عديدة تدور حول موضوع واحد هو « الاحداث المشردون » وقد علقت بصالة الخريف . ولما سألته عن الطابع المصرى في الرسم أجابني « ماذا تقول ؟ ليس عندنا الا جزر قليلة أصيلة ضائعة وسط بحر من التقليد الفاسد كما كان الشأن في الاسكندرية فى أواخر حكم الاغريق ، ولاغرابة كان الامير يوسف كمال حين انشأ مدرسة للفنون

الجميلة سنة ١٩٠٨ اختار معظم مدرسيها من الفرنسيين ولكن العجيب ان المصريين ، بعد انقطاع عن الفنون التشكيلية على مدى ١٤ قرنا ـ باستثناء العهد الفاطمي ـ قد اخذوا الآن يعودون اليه بحماس كبير . وخديجة رياض ـ حفيدة أحمد شوقي الشاعر ـ تعرض لوحات تجريدية ، ولكنى افضل شغلها فى الحلى ، انه بديع ، ورءوف عبد المجيد يحيل اكواخ الشواطىء الى تكوينات تجريدية فكأننا بازاء عالم صامت متفرد لا تطيب له النفس وافضل المصورين عندى هى عفت ناجي ، وقد اشتهر أخوها محمد برسم هيلاسلاسى فى الحبشة قبل الحرب الايطالية ، وتستلهم عفت رموز السحر ـ هذا العنصر الدائم فى حياة مصر ـ السحر الاصيل الشرانى ، لا السحر المدعى طلبا للتصاحب ولبريق التظاهر ، ثم تحيلها الى رسوم ، وهى لا تعنى بمقاييس الذوق او الموضة الشائعة ، وهما مطبان خطران على الفنان ، ورموز عفت السحرية هى من تشكيلات خشبية بارزة ، فلها أبعاد ثلاثة ، وتصبغها بدهان لامع كالفلورسنت »

اعود الى صديقى يانكو ، انه تحول الآن الى التصوير الفوتوغرافى ، وقد ظل مرة ساهرا طول الليل ليلتقط هذه اللحظة الخاطفة التى يزهر فيها نبات صبار مرة كل ثلاث سنوات .. ويقول يانكو بشىء من المرارة « الزهور ؟ نعم! القاهرة ملأى بمتاجر الزهور ، ولكنها عند المصريين اشياء توضع فى سلة مفضضة ، محزومة بشريط طوله عشرة أمتار ، وترسل لحفل زفاف » !

واقول من جديد ان هذا الذى اكتبه قد عفى عليه الزمن ، فقد تلقيت اخيرا من يانكو بطاقة بريد مصورة وعلى طابعها خاتم ميونخ

الفصل الحادى عشر

القاهـرة .. الطابـع الإسلامى

العمارة الاسلامية التى ابتدعتها القـاهرة لا تجعلها فحسب مجرد مدينة جليلة المكانة فى هذا الفن ، بل تجعلها مدينة فريدة ليس لها مثيل . وقد رأيت أن انسب هذه العمارة الى الاسلام ، لان نسبتها الى السراقنة ـ كما فعل القرن التاسع عشر دائما ـ منافية للدقة والصواب ، ولانه كما يقول ائمة المتخصصين اليوم ، لا يجوز اطلاقا نسبتها الى العرب ، وها هو ذا الاستاذ كرسويل يستخدم عبارة الفن المسلم ، وقد يغتفر لى أن ألجأ الى الصفة المشتقة من كلمة « الاسلام » لانها الاسم الذى يطلق على هذا الدين وحضارته ، فهى أفضل عندى من كلمة«المسلم» التى هى صفة من يعتنق الاسلام ، فمن محامد النسبة التى استخدمها انها تنطبق على أبنية أنشأها معماريون مسيحيون

وحتى القول بأن هناك مدنا أخرى تزهو كل منها بمثال للعمارة الاسلامية أوفى صدقا وكمالا هو قول موضع نظر . حقا ان كل من زار بورصة (فى الاناضول) ورأى عمائرها لا يسعه الا الاعجاب بألوانها الزاهية ، وان عشاق نقاء الشكل فى الفن المعمارى يهللون لقصر الصيد المسمى بالأخيضر (فى لواء كربلاء) أو لبقايا قصور سامرا (سر من رأى) التى بنيت فى القرن التاسع ، وان ضريح تاج محل

الذى تنعكس واجهته على الماء له من المعجبين به قدر ماله من الهائمين بالتقاط صورته ، ولكنها جميعا اما ابنية فرادى ، واما ــ كما هو الحال فى بورصة ــ ابنية من نتاج عصر واحد . اما القاهرة فهى وحدها التى تشهد بتطور متصل قرنا بعد قرن ، يتدرج من السذاجة عبر البساطة الى تعقيــد التركيب ، ومن الازدهار العفى الى الذبول السقيم . وهكذا فان سجل حضــارة بتمامها يتكشف على الحجر والاجر والخشب طوال زمن يزيد عن ثلاثة عشر قرنا هو الان معروض للناظرين . وقد كانت بغداد خليقة بأن تنافس القاهرة ، ولكن بغداد خربها المغول بعد سنوات قليلة من بناء قصر المستنصرية المشهور بانسجامه اللطيف . لذلك اذا اردنا أن نتذوق الفن الاسلامى بغير ان تفسده رتابة التفاصيل كما فى قصر الحمراء ، وبغير أن يشوهه تعمل مبالغ فيه ــ كما فى عمارة الهند ــ فينبغى لنا ، كما يقول ستانلى لين بول ــ أن نتامل مساجد القاهرة واضرحتها

واذا كانت القاهرة بهــذا النمو العشوائى لاحيائهــا السكنية تبدو مختلطة المسالك ، فان ميزتهــا انك اذا تأملتها بصبر وجدتها لا تكشف لك عن اختلاطها الذاتى فحسب . بل تكشف ايضا عن اختلاط جانب دخيــل وجانب أصيل لحضارة تتمركز فى القاهرة ، وهى اذ تكشف تفسر

ان مشوارا طويلا فى يوم واحد (وان كان من الافضل تجزئته على أيام عديدة) هو بمثابة درس لك ، فتفهم منه هذه الحضارة المنسوبة الى الجنوب الشرقى لحوض البحر الابيض المتوسط ، كما تفهم تطورها

وينبغى أن يبدأ المشوار من الطرف الجنوبى للقاهرة

بنت اليوم . وافضل وسائل القيام به هو ركوب قطار ضواحي من محطة باب اللوق (وثمن التذكرة فى الدرجة الاولى ثلاثة قروش ، اى ما يعادل ستة بنسات) ثم تنزل فى المحطة الثالثة .. محطة مارجرجس ، فتشرف على مدخل ضيق لكنائس لا تخلو من دمامة . احن رأسك تحية لها والحظ جدارين مستديرين بقيا من حصون القاهرة الرومانية ، واجعل عزمك زيارة هذه القاهرة فى غد ، ثم امض فى طريقك واسلك دربا معتما متربا يحاذى السور الذى يضم الكنائس ، فاذا بك تصل الى أقدم مسجد فى القاهرة

وقد تم فتح مصر سنتى ٦٤٠/٦٤١ م وفاتحها هو عمرو بن العاص ، وكان فى شبابه من أصحاب الرسول الذى توفى سنة ٦٣٢ . وقد جاء عمرو من الاراضى العربية حيث — ونحن ننقل مرة أخرى كلام الاستاذ كرسويل —

« لم يكن لاهلها العرب قبل الاسلام — فيما يبدو — الا فكرة بدائية عن فن العمارة ، فلم يكن معبدهم قبل سنة ٦٠٨ يزيد عن اربعة جدران فى قامة الرجل تدور حول بئر زمزم ، وبعبارة أخرى كانت الاراضى العربية تمثل فراغا معماريا تاما أو يكاد » . وعمرو الذى شرب من ماء زمزم كان قائدا عبقريا ، سلس الايمان بدين سلس ، فكان فى حاجة الى جامع يؤدى فيه صلاته . لاشك انه رأى هذه الكنائس التى مررنا بها لتونا على الصورة التى كانت لها فى الاصل ، انها تختلف عن الكنائس الواقعة الى الشرق من مصر فى سوريا وفلسطين فهى بادية التقشف مكنونة ، تعكس موقف الكنيسة القبطية من العقيدة بميلها الى الاقتصار فى غموض على الذات .. وقد خصصت سوريا وفلسطين بالذكر لان المسلمين ظلوا زمنا طويلا يشاركون

فى كنائسمها ، يصلون فى جانب ، ويصلى المسيحيون فى الجانب الاخر

واليوم فى الموقع الذى تدبر فيه عمرو كيف يفى بحاجته، لا نرى الا سورا عظيما من الاجر المغطى بالجص ، كأنه مهجور ، له ثلاثة أبواب ، فاذا دخلنا وقع بصرنا على مساحة مكشوفة أرضها من الرمل ، هذا البهو فى الوسط يسمى بالصحن ، انه مصطلح فنى يحسن بنا أن نتذكره ، والى امام المدخل من بعيد نرى القبلة ومن حولها الاروقة ، وهى غابة من الاعمدة غير المتشابهة تتفتح عن الصحن من خلال عقود تبلغ العشرين

وهذا الجامع الفسيح العادى البسيط ، كان فى الاصل معدا فى المحل الاول لاغراض عسكرية ، ليتـــاح لرجال الجيش المؤمنين أن يجتمعوا داخل سور ليقيموا صلاتهم فى أمن . لم يبق منه اليوم الا أشباح تتراءى فى الجامع الذى نزوره ، فلا يكاد يكون قد بقى منه قالب واحد من الآجر أو عمود مستعار من بناء اخر ، لان جامع عمرو كان يوم انشائه ضئيلا بالقياس اليه اليوم ، ضئيلا ليناسب مدينة الخيام (الفسطاط) التى استحدثها عمرو خارج بابليون المسيحية . هو اليوم مساحة ضخمة على هيئة مربع ، يبلغ طول ضلعه ١٠٠ ياردة ، اما زمن عمرو فكانت له أربعة أضلاع غير متساوية (٢٩ فى ١٧ ياردة) وكانت ارضه مكشوفة مغطاة بالجص ، وعلى قوائم من جـذوع النخل سعف من الجريد المغطى بالطين ، كما كان حال بيت الرسول فى المدينة ، أما الجدران فكانت من اللبنات . وبعد ثلاثين سنة تجدد بناؤه ، ثم أهمل وتهدم ثم تجدد مرة بعد أخرى الى زمن محمد على . وهو اليوم أفضل بداية لجولة فى القاهرة الاسلامية

فاذا خرجنا وتلفتنا نبحث عن سيارة أجرة (وعسير العثور عليها فى هذا الحى الفقير) ورضينا بالسير على الاقدام ، وجدنا أنفسنا نطأ ارض اول موقع للقاهرة الاسلامية . كانت مدينة من الخيام نصبها البدو .. حقا انه ليناسبها اليوم ما نراه من منظر أكوام النفايات وصفوف القبور ودكاكين رثة صغيرة تبيع أوانى فخارية بدائية

وكانت حركة العمران فى القاهرة الاسلامية تتجه دائما الى الشمال

وبعد ٢٠٠ سنة من تأسيس عمرو بن العاص لمدينة الفسطاط والى الشمال منها مسافة ميل واحد ، أنشئت المدينة الاسلامية التالية على يد وال للخليفة العباسى . فقد جاء ابن طولون من سامرا (سر من رأى) التى شيدها الخليفة المعتصم ، وقد أعياه تتابع الصدام فى بغداد بين رعيته من العرب وجنوده المرتزقة من الاتراك ، مدينة لم يسبقها فى الضخامة والطموح الا مدينة روما العتيقة ، فقد كانت فسيحة الطرقات ، تتقاطع متعامدة ، ولا يزال تخطيطها الهندسى بينا عند تصويره من الجو ، ما أشبهها حينئذ بمدينة برازيليا اليوم . ولان ابن طولون ، وهو نفسه من الاتراك ـ قد جاء من هذه المدينة الكبيرة ، فقد بدت الفسطاط للعين مدينة صغيرة محشورة ، وكذلك وجد اتباعه جامع عمرو ـ رغم أنه كان قد زيدت مساحته ـ أصغر من أن يفى بحاجتهم لاداء صلاة الجمعة . اين هو من جامع سامرا الذى كان يتسع لستين ألفا يصلون جماعة معا

وهكذا مضى ابن طولون سنة ٨٧٠ فى اقامة مدينة جديدة يكون فيها قصر له وميدان صوالجه(اللعب بالكرة من على ظهور الخيل ، أى لعبة البولو الحديثة) . خلة واحدة

تؤلف بين العرب والاتراك وهى عشق الخيل ، ولكن الذى
كان يؤلف قبل كل شيء بين ابن طولون ورعيته من المصريين
هو الدين الاسلامى الذى يطرح الفوارق القوميـة التى
يتعصب لها العصر الحديث وتلح عليه الحاحا شديدا .
وكان ابن طولون متدينا ، تقيا ، ورعا . وها نحن نذهب
اليوم لزيارة جامعه

حقا ان وصوله الينا سليما يعد من الخوارق ، هذا
المربع المهيب خليق بأن تكون روعتنا له مماثلة لروعتنا
لمعبد البارثينون . بل هو عندى يوحى بفيض اكبر من
القداسة ، انه أميل فى الشبه الى معبد فرعونى منه الى
معبد اغريقى ، فهو يخفى جماله من وراء أسوار لابد لمن
يؤمه من المؤمنين من اجتيازها . وهو مقام على تل صغير
ليكون بمنجاة من ماء الفيضان ، ولكنه لا يطاول الاكروبول
فى الارتفاع ، فانت تصل الى مدخله عبر طرقات زاخرة
بالضجة والزحام ـ وقد نظمتها البلدية على نحو يكاد
يكون دميما . فاذا جاوزنا المدخل الفينا انفسنا وقد شملنا
جو يوحى بالسكينة والبساطة وتجانس العناصر ، وينكشف
الصحن للسماء فتحرقه الشمس وتجلله بالصفار . وفى
وسط الصحن فسقية للوضوء تعلوها قبة ترجع الى سنة
١٢٩٦ ، وهى أقل قيمة من القبة الاصلية التى كانت مقامة
على عشرة اعمدة من المرمر ، طلبا للجمال وحده لا للنفع ،
فنحن نعلم أن ماء الوضوء لجموع المصلين كان مبـذولا
ميسرا من وراء الجدار الغربى للجامع الأصلى . اذا كان
الصحن هو بمثابة الصحراء فالفسقية هى الواحة والعقود
هى الغـابة التى ترمز لما فى النفس من تشابك المنـازع
المتضاربة ، فيطالعها فى ظلال الاروقة جو رطيب يشعشع
فيه الجذل الروحى ويخيم فيه السكينة الداعيـة الى

الاستغراق فى التامل والاستعبـــار ، فالمسلمون الذين اخضعوا صحارى الشرق الاوسط لم يالفوا الغابات الا قليلا ، راوا غابات النخيل على شاطىء دجلة وغابات شجر الارز فى جبل لبنان ، الف نادر وقصير الامد ، فهو يتوهج فى الذاكرة كما يتوهج القرآن الذى نزل فى مكة قنينة الرمال كلما تحدث عن الحدائق والجنـــان ، فالســماء والصحراء والماء والغابة ، هذه الاشياء الاربعة انما توحى بشىء خامس ينطوى فى وجوده وجود كل الاشياء : الله .

فأنت فى هذا المبنى لا تستشعر الله فى رؤيتك لتمثال ــ فليس فى الجامع طبعا تماثيل ــ أو لتفاصيل من زخارف ، ولو ان الزخارف الجصية حول الشبابيك بديعة الجمال ، بل تستشعره فى هــذا الانســـجام الكامل المطلق حيث لا عوائق بارزة وحيث تجد كل حنية من حنايا الروح رمزها . .

وفى المساحة التى اضيفت للجامع وفى حضن أسواره العالية تقوم مأذنة من الحجر الرملى ، كأنها مسخ لطراز معمارى قديم ، فنصفها مربع ونصفها اسطوانى . وقد تعددت واختلفت الاراء فى تعيين هذا الشكل العجيب ،

فهناك رأى يقول ان ابن طولون كان رجلا منصرفا الى عمل نافع أو متحفزا له ، يكره البطالة والمتبطلين وكان جالسا ذات يوم يتحدث عن جامعه وكيف يريده أن يكون من طراز جديد غير مسبوق وأن تتمثل الجدة فى استغنائه عن الاعمدة لأنها تنتهب عادة من الكنائس ، فرآه جلساؤه يلهو بورقة فى يده ، ويلفها فى غير مطلب ، فلما أحس أنهم ضبطوه وهو يعبث أراد أن يبرهن لهم انه كان منصرفا الى عمل نافع يتدبره ، وقال لهم من فوره « اعملوا لى مأذنة على هيئة هذا المخروط الذى فى يدى »

ولكن التعليل الاقرب للعقل هو أن تذكر البرج المخروطي الهائل في جامع سامرا ، وهو نفسه أحد المناظر العراقية حيث كان لا يزال برج زيجوارت في بابل قائما في زمن ابن طولون وحيث لا تزال قمة أغا جدف ترتفع ١٧٠ قدما الى الان في افق بغداد . ولكن ان كانت عقود الجامع وهي من الطوب الاحمر المغطى بالملاط والجص ، وكذلك زخارفه في الاروقة وحول الشبابيك باقية كما كانت فان المأذنة التي تراها اليوم ليست هي التي كانت قائمة في البداية ،

فمن المستيقن أو يكاد انها بنيت من جديد على يد السلطان لاجين في عهد المماليك . والمأذنة ، في شكلها الذي اتخذته في عصر أصبحت فيه المآذن تزهو برشاقة تغلو احيانا فتبلغ حد التخنث ، تمثل محاولة متعثرة للعودة بالمأذنة الى أصلها الذي عرف كيف يقتبس في غير اختلاط او اضطراب هذه الخطوط المنسابة التي ميزت المخروط الهائل في مسجد سامرا . ولم تكن المأذنة منذ انشائها زمن ابن طولون تبدو عجيبة شاذة ، اذ كانت المآذن ــ هذا الشكل المعماري المستقل ــ تستفتح اول عهود تطورها على مراحل امتدت قرونا عديدة . وكانت أوائل المآذن ابراجا مربعة حول الكنيسة الكبرى في دمشق التي أصبحت فيما بعد مسجدا .

وكلمة ماذنة في الاصل تعني « مكان يسترعى فيه الانتباه » وكان يمكن ان تطلق على فنار كمنارة الاسكندرية

والمدينة الاسلامية الثالثة ــ تلك التي اتخذت لاول مرة اسم القاهرة وخلعته على العاصمة كلها تقع الى الشمال من جامع ابن طولون وتبعد عنه مسافة ميل ، وكان انشاؤها بعد قرن كامل من الفراغ من بنائه . لن يسعفك قطار او ترام لزيارتها ، ومن الاصوب ان تعدل عن ركوب التاكسي وتعتمد على قدميك ، هذا بفرض انك زرت جامع عمرو

مع الفجر وجامع ابن طولون وقت الفطور تقريبا

لهذه المدينة الثالثة بوابة جنوبية ـ متينة عفية ـ من طراز بيزنطى . جناحاها المحصنان ترتفع فوقهما ـ كأنما تتهلل لنا ـ مآذن رشيقة اقيمت فى عهد لاحق . كانت تتهلل فى الماضى للمجرمين ، هى حقا جسر التنهدات وبعد أن كانت تتدلى منها حبال المشانق اصبحت مأوى خفيا لسيدى المتولى ، انه قديس يطير فى الهواء من مكة الى القاهرة بالسهولة ذاتها التى يطير بها بطل من الف ليلة وليلة ، اليه تكتب العرائض والشكاوى ويزج بأوراقها مابين المسامير وخشب الباب ، اما استجلاب شفقته فيكون بلف مزق من قماش حول المسامير

هذا هو باب زويلة ولكنه عند المتعلقين بالولى يسمى « باب المتولى » . وهناك طريقان سهلان يؤديان اليه ، كلاهما ممتع لك . فاذا كنت تمشى مرخى القياد ، غير متريث لتتأمل أثرا معماريا تقصده لذاته ، وانما تتشرب بنظرة شاملة هذا السحر الذى تنفثه عمائر ، مسلم لها كمالها ، أو تعرضت للبلى فان سيرك فى أى الطريقين سيمدك بحيوية ونشوة لطيفة يتعاليان مع علو النهار ويناقضان مابقى فى نفسك من جو القبور التى تجلت لك تحت أضواء الفجر عند جامع عمرو .. او من صرامة الجد والاحتشام التى استمد منها جامع ابن طولون مفاهيمه الاساسية . وتكفيك نظرة الى أى خريطة لاثار العصور الوسطى فى القاهرة لتعرف كيف تتبع هذين الطريقين ، فهما يتحاذيان أو يكاد ، ويتجهان الى الشمال فيكون النيل على يسارك والقلعة وتلالها الجرداء عن يمينك ، وبدايتهما واحدة ، فأنت تغادر جامع ابن طولون المستعلى فوق رابيته ، فاذا خرجت من بابه انعطفت الى اليمين حتى تبلغ شارع الصليبة الممتد شرقا غربا ، هابطا من الميدان الكبير تحت

القلعة الى ان يبلغ ميدان السيدة زينب ثم يواصل امتداده المستحدث حتى النيل

وشارع الصليبة شارع جدير بأن تعود اليه بالليل . ترى فيه « سبيلا » من طراز تركي ، وحماما عتيقا أسدل على بابه ـ كستارة ـ بشكير حمام يستعمل كازار وجامعا له قبتان حيث يرقد اثنان متصادقان من رجال المماليك ، والافضل أن تكون هذه الجولة الليلية اخر شيء تفعله قبل أن تأوى الى فراشك ، وان تكون بسيارة أجرة تسير بك على مهل ، ولكننا الان بالنهار ، فأنت اذا تابعت شارع الصليبة في صعوده الى القلعة بلغت مفترق طرق ، ورأيت مشربا للشاى ـ شتان بينه وبين امثاله فى اوروبا رغم وحدة الاسم . قد تحير مكانه قبالة « سبيل » انطلق فيه فن العمارة التركي على هواه ، حتى لتظن لحظة أنك أمام منظر فى أواسط اسيا لا فى افريقية ، وللسبيل قبة جانبية يعلوها هلال ، وخمسة اضلاع بارزة النقوش وفق الذوق التركى ، وشبابيك حواجزها المعدنية مصنفرة بدقة وتداخل بارع . بجانب السبيل دكان يبيع البصل ، يتعهده شيخ يعتم بطاقية بيضاء . الى جوارى فى مشرب الشاى رجل لفه الذبول يحتسى قدحا من القرفة باللبن

سأعيد لك وصف جولتى محددا زمن كل رحلة ، نفعا للقراء جاعلا قيامى بها فى يوم معتاد من ايام شهر مايو ، والسبيل هو من معالم جولتنا فمن عنده يبدأ أول طريق مؤد الى باب زويلة ، يسمى ابتداؤه بشارع السيوفية ، ثم يمتد مستقيما وان تغير اسمه أربع مرات ، ولا يقاطع الا شارعا واحدا كبيرا ، وهو الشارع الذى كان يسمى من قبل شارع محمد على واصبح اليوم يسمى بشارع القلعة ، فاذا بلغته فجاوزه محاذرا حركة المرور المشتدة فيه ، وتابع سيرك فى نفس الاتجاه فانه الطريق ، بعد

اصطدامك الوحيد بالترام والسيارات ، ماهو الا سوق واحد متصل . اننى أمر بذبائح الجاموس وعلى اللحم اختام بنفسجية تتدلى أمام جدران بنيت قبل اول استيراد للبطاطس - وهو معروض ايضا امامى للبيع - من امريكا للقاهرة ، ثم دكاكين صغيرة يشتغل أصحابها قعودا فى نسج السجاد ، ها أنذا ارى صدفة اربعة من خف الجمل مقطوعة مطروحة تنتظر من يشتريها ، ثم أمر بعد قليل ببرميل ممتلىء بالفلفل الاخضر اللامع فيهيج شوقى الى ان اصنع لنفسى « سلطة » متبلة ، ثم بأكوام من الطماطم ، حباتها كبيرة . شتان بينها وبين طماطم اوروبا التى لاتزيد فى الحجم عن كرة البلياردو - ولكنها تشكلت باعتساف كأجساد الفلاحين فى لوحات المصور بروجل ، ثم إذا بصبى يمرق من دكان يبيع العقود الذهبية ملوحا بحزمات خضراء وهو ينادى بصوت عال « نعناع . نعناع » كم هى عسيرة هذه الكلمة على نطقى ، ولكن هاهو عطر جديد يختلط ببقية العطور التى تملا خياشيمى ، ثم أمر بجدار تتدلى منه سلاسل من الاحذية والشباشب والصنادل ، ثم هاهى امرأة متشحة بالسواد تبيع مسحوقا اسمه « الدقة » وهى اخلاط لا حد لها من حبوب متنوعة ، شتان بينها وبين الفلفل ، انها لا تهيج شوقى الى دخول المطبخ . ثم أمر بدكان مشيد حديثا بالاسمنت المسلح ، فهو دميم فى هذا المكان ، تعالت على جوانبه كالجدران صفوف من علب مسحوق للصابون له شهرته . أتريث من جديد حين يتسع الطريق قليلا ويستطيل ، ادخل مقهى أمامها سقيفة ، بلدية هى ولكنها مريحة ، عليها لافتة تقول « قهوة محمد ناصف وأولاده » وأشرب فنجانا من قهوة ناصف التركية « سادة » أى خالصة بغير سكر . على حين يمر أمامى حمار يجر عربة محملة بالقدور الكبيرة ، حشرت فى أفواهها

سدادات مكورة من الورق ، هى قدور الفول المدمس ، انه الطعام المفضل الذى يلتزمه المصريون لفطورهم ، يخلط بالزيت ويتبل . ادفع ثمن قهوتى مايعادل خمسة بنسات — ثم امضى فأمر على « قصارى » الاطفال من قبل أن ادخل الى القسم الاخير من الطريق . انه سوق مسقوف « وكلمة بازار الشائعة فى الهند غير مستخدمة فى مصر » . وهذا السوق امتع بكثير من سوق خان الخليلى ذائع الصيت ، فخ السائحين من قديم . فهذا السوق المسقوف هو المكان الوحيد الذى يرسم لك اقرب صورة الى الصدق باقية الى اليوم من حياة الناس فى عهد المماليك .. ابواب ضخمة — متروكة الان مفتوحة دائما — رشقت فيها كرات من حديد ، وكان التجار يغلقونها بالضبة والمفتاح اذا ثارت ثائرة المماليك ، هنا تستطيع ان تشترى بضاعة أصيلة تحمل طابع الشرق وتذكرك به ، كلها من أجل الدواب ، فهذا السوق متخصص لصناعة اطقم الخيل والحمير ، والسرج وغطاء السرج والعذار المنسدل حول راس الحصان من خيوط صوفية ، وهى أشياء تقصد أيضا الى الزينة وان بقى لها نفعها وثمنها معتدل ، ثم اذا بهذا السوق الذى يتسلل اليه — كأنما من مصفاة — ضوء شاحب ، ينتهى فجأة عند باب زويلة . هنا انظر الى ساعتى ، ان مشوارى من جامع ابن طولون — مع حساب تريثى لشرب الشاى عند السبيل ثم لشرب القهوة فيما بعد عند محمد ناصف وأولاده — قد استغرق من وقتى ساعة كاملة ، لاتزيد ولا تنقص

اما الطريق الثانى فهو يتساوى مع الاول فى المتعة ، وان كان أطول واكثر تعرجا ، فلتأخذ شارع السيوفية طريقك ، ثم انعطف فى اول شارع يتجه بك يمينا الى القلعة فتجد جامعين كبيرين — احدهما جامع السلطان حسن

الذى سنزوره فيما بعد - يحيطان بالطريق وهما على حافة وسعاية صفيرة ، فلا تعرج عليها واقطع شارع القلعة الذى لايخلو من دمامة ، ثم ادخل شارع سوق السلاح وهو شارع مزدحم ذو ابنية متداعية تريد أن تنقض ، حتى اذا بلغت نهايته اتجه يسارا الى شارع التبانة الذى يمر بجامع الماردانى (١) .. ثم يتجه غربا فيحيط بالدرب الاحمر ، وهنا تتكرر المساجد والمدارس العتيقة وانغام الموسيقى الشرقية والدكاكين والمشارب مكونة الجو الاصيل الذى عرفناه . واذا بك فجأة تجد باب زويلة شامخا على يمينك غير مواجه لك .

وهكذا تجدنى دائم السعى الى باب زويلة كانما كانت هذه البوابة هى محط الانظار ، وانها لكذلك ، فهى المدخل الى القاهرة الاصيلة

وكما أن لندن الاصيلة عبارة عن نواة مسورة فى وسط سوق اقيم حولها ، فكذلك القاهرة ، اتخذت اسمها وطابعها من قطعة مربعة من الارض لايزيد ضلعها عن الف خطوة . هذه المدينة الداخلية التى بنيت اصلا لتكون مقرا لشئون

---

(١) بنى جامع الماردانى فى سنة ١٣٣٩ م وهو يمثل خير تمثيل قدرة المزج فى الفن العربى الاسلامى فأعمدته من كل شكل وحجم .. فمنها الجرانيتية الحمراء المأخوذة من المعابد الفرعونية ، ومنها اليونانية الرومانية ومنها المسيحية القبطية . وتيجانها محلاة بزهر اللوتس أو بالازهار ذات الطراز الكورنثى بل ان بعضها وضع مقلوبا رأسا على عقب . ولكن الطريقة التى وضعت بها تضفى على الجميع وحدة تدعو الى الدهشة مع أناقة تؤثر فى النفوس . وهذه القدرة على مزج العناصر المتباينة فى طراز جديد واحد هى احدى السمات الواضحة فى الفن الاسلامى العربى . كما اننا نرى فى الشربية التى تفصل بين رواق القبلة عن صحن الجامع المحاط بالاعمدة المقنطرة مثالا رائعا فى أعمال الخشب فى القرن الرابع عشر الميلادى وان تجدد أكثره . وقد كان الماردانى ساقيا للحاكم المملوكى الكثير الذرية الناصر محمد بن قلاوون وزوج احدى بناته ، ثم صار حاكما على حلب حيث وافته منيته

الحكم والدين ، لا للاسكان والمعيشة هى مدينة القاهرة ، وهذه المساحة يحدها شمالا الجزء الشمالى من سورها الاصلى ، وشرقا سور صلاح الدين الذى أقيم فى فترة تالية ، وجنوبا الدرب الاحمر وامتداده تحت الربع ، وغربا مجرى الخليج القديم

واستمرت القاهرة على شكلها الاصيل مدة قرنين . اما اصل بنائها فمعروف لنا تماما .. فهو اليوم الخامس من شهر مايو سنة ٩٦٩ وهي الليلة التالية لاستيلاء جوهر على مدينتى عمرو وابن طولون باسم مولاه المعز لدين الله . اما جوهر هذا فرقيق مسلم من أصل اوروبى ، ومولاه هو رابع من تولى الحكم من اسرة عربية تونسية طالبت بالخلافة لانتسابها الى السيدة فاطمة بنت النبى (١) التى تزوجت من على ابن عم محمد وأشد أصحابه تحمسا للدين . وانبثقت فرقة من الاسلام ـ وهى الشيعة ـ تؤمن بأن الامامة وقف على سلالة على من فاطمة . ويتبع مذهب الشيعة حاليا نصف سكان العراق تقريبا وكل سكان ايران بينما تخلو منه مصر فهى تتبع المذهب السنى ، فى حين كان مذهب الشيعة هو الاساس فى انشاء عاصمة البلاد التى نجتاز عتبتها الان من باب زويلة ، ودليل على ذلك أن باب النصر الموجود فى الضلع الشمالى من هذا المربع الفاطمى لا نزال نقرأ مانقش عليه بالخط الكوفى « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » وهو مايدين به المسلمون جميعا ، مضافا اليه « على وصى الله »

اما كيف بنى جوهر مدينة القاهرة .. ففى ذلك قصة طريفة . فقد جمع الحشود من العمال بمعاولهم ورصهم على اضلاع المربع الذى حدده على الارض بواسطة قوائم

(١) لقد توفى كل اولاد النبى الذكور قبل البلوغ

من الخشب ، واوصل اعلى هذه القوائم بجبال مدلى منها اجراس ، ووقف المنجمـــون المغربيون على اســـتعداد يتفحصون أدواتهم وطوالعهم الفلكية حتى اذا اطمأنوا الى دخول الوقت المبشر بالخير ، حركوا الحبال لتمر عبرها الحركة ـ كتليفون بدائي ـ فتدق الاجراس ايذانا بالعمل، ولكن الذى حصل هو ان غرابا وقف على الحبل وسبق المنجمين فى هزه واعطاء الاشارة ، فانهالت الفئوس والمعاول من آلاف العمال تحفر الارض . ولم يكن هناك مجال لمنع ذلك ، فاكتفى المنجمون بأن يحسبوا الكوكب صـــاحب الطالع وقت الخبطة العشواء فوجدوه المريخ . ذلك الكوكب الاحمر اللون واسمه « القاهر » فاطلقوه على المدينـــة متحدين بذلك النذر التى يحملها معه وبذلك سميت المدينة « القاهرة » واجتازت النذر بأمان

ولافراد اسرة المعز صفاتهم المميزة الفريدة ، فهم من ناحية من أصل عربى لا تركى ، ومن ناحية أخرى كانوا يهتمون بالفن كاهتمامهم بالعلم ، ثم انهم بحكم شيعتهم قد انفصلوا عن بقية العالم الاسلامى . فظهر فى الفن اتجـــاه حسى لم يظهر فى العصور العربية الاخرى ، اللهم الا فى ايران الشيعية ، وبدلا من أن نرى الزخرفة العربيـــة الجافة ، نجد منقوشا على أوانيهم الخزفية صورا لعـــازفى العود ، تتدلى من فوقهم عناقيد العنب ، وتظهر لهـــم عيون واسعة وعمائم كبيرة ، كما نجد رسوما لحيـــوانات ايضا ، ويشهد على ذلك مجموعة رائعة من الخزف فى المتحف الاسلامى

ويتميز الفاطميون ايضا بالسرعة والهمة فى الانشاءات، وخير دليل على ذلك مانراه اذا ماتجهنا شمالا الى منتصف المربع ، ففى السنة التالية لتأسيس المدينة وضع جوهـــر

اساس مسجد وجامعة الازهر في ٣ ابريل في الجـــزء الشرقى من العاصمة الفاطمية ، ولم تمر سنتان حتى كمل البناء واستقبل طالبى العلم فى سنة ٩٧٢

ولايزال لهذا الجزء من القاهرة ــ الذى كان أصلا المدينة الفاطمية ــ سحره وجماله بالرغم مما شوه هذا الجمـال ماستحدث بداخلها وعلى أطرافها من مبان تختلف عـن انشاءات العصر المملوكى ذات الحدائق الداخلية ــ وهى مبان مكونة من شقق قد خلت من كل جمال . وطالما شكا النقاد من ان المصريين لم يبقوا على كثير من قديمهم ، ومنهم ستانلى لين بول حيث كتب منذ ٦٠ عاما ان « المصـلحة التى تعنى بتخطيط الشوارع انما قامت بمهمتها بأفـــق ضيق من الفكر فى خدمة المدينة » ولكننى أقول ان كل مدينة ــ بله العاصمة ــ لايمكن ان تظل على حال واحـدة مثل مدينة محنطة ، فالناشئة من الاطفال يحتاجون لمدارس يطلبون فيها العلم فكيف تنشأ لهم مبانيها بالسرعة اللازمة بدون الاسمنت واسياخ الحديد ؟ وعلى كل حال فلا يزال هناك قدر كاف من الاثار يعطى للذهن مجالاً لتصور ماكان عليه الحال فى الماضى

اذن فلنأخذ الان الطريق الذى يقودنا من باب زويلة فى الجنوب الى باب النصر فى الشمال ، وخير رفيق لنا فى هذه الرحلة هو كتاب مسز ديفونشير المسمى « جولات فى القاهرة » فهى ترشدنا فيه ــ كأحسن دليل ــ فى لغـــة سهلة صريحة ، وعن علم خال من الحذلقة الى ماحتجب من آثار الماضى فى أماكنها غير الجلية ، وهى قادرة على كشف نفائس كثيرة اضطررنا الى اغفالها فى هذا الفصل من الكتاب . ولنتركها مع من عندهم فسحة من الوقت تطول الى سبعة ايام او اكثر يقضونها فى القاهرة معكتابها

ونعود فنتقدم فى طريقنا ونترك مستشفى قلاوون والاثار البديعة الاخرى التى خلفتها لنا عصور المماليك ونخطو فى شارع بين القصرين الذى يصل باب زويلة بباب النصر حيث نكافأ فى نهاية مسيرتنا المضنية فى الزحام بجامع ثالث كبير هو جامع الحاكم الواقع تحت ظلال الاسوار العظيمة مباشرة ..

وهنا يمكن توجيه بعض اللوم الى القائمين على رعاية التراث الاسلامى ، فجامع الحاكم بأمر الله جامع عظيم سمي اولا بالجامع الجديد وبالجامع الابهى ولكنه يقف الان فى الناحية الداخلية من المدخل الشمالى للمدينة الفاطمية وقد أخذ التعب منه كل مأخذ وغطاه التراب . والاسوار تغطى الجامع وهى حماه ، فلكى نشاهده بوضوح علينا أن نتخذ لنا مكانا فوق أحد برجى باب النصر . واعتقد أنه لو سئل أحد المعجبين بالعرب عما انجزوه لاشار اول مايشير على الاقل الى هذه الاطلال فى القاهرة . صحيح ان فى القاهرة جوامع اكبر حجما ولكنه يتميز عنها انه أقيم لحاكم عربى الارومة ، ومع ذلك فقد أهمل ثم أصيب بحريق كبير فى مستهل هذا القرن بعد معاملة قاسية دامت قرونا ، فى حين كانت الترميمات تافهة ، فسقط كثير من الجبص المنقوش عليه بالخط الكوفى ، ومع هذا فله مأذنتان مديدتان واسعتان معقدتان ظاهرتان فوق أبراج مربعة متراجعة ، كما انتشر البلى فى المجموعة الكبيرة من الممرات المبنية بالآجر تحتهما ، وكذلك احتلت مدرسة غير ذات أهمية ركنا من اركانه.

وقد قدمت اقتراحا لاحد المواطنين العرب بضرورة العناية بهذا الجامع بدلا من اهماله خصوصا وانه يقع فى مدينة ينادى بها قلبا للعروبة فأجابنى : « ربما كان الكره

الذى لا يزال يكنه المصريون للحاكم بأمر الله هو السبب فى اهمال جامعه »

والحاكم ـ حفيد المعز ـ كان أشبه بالامبراطور كاليجولا الرومانى . انه كان مدللا شديد الانانية تنتابه نوبات من التعقل والجنون، ومن التسامح والتعصب ، كما كان مصدرا لكثير من المضايقات للناس فى التافه من الامور وفى خطيرها، وظل كذلك حتى لقى مصرعه . قتله شخص مجهول فى الصحراء أثناء تجواله فيها وهو راكب حماره . وكان من ضحاياه الاقباط فقتل منهم الكثير ، وبائعو الملوخية التى حرمها ، وهى طعام صمغى القوام محبوب عند المصريين الى يومنا هذا ، وحرم صنع أحذية النساء منعا لهن من الخروج من بيوتهن ليلا ونهارا ، ومنع الناس من بيع الزبيب وأمر بحرق الكروم وقطعها كما حرم ايضا اللعب بالشطرنج ، حتى الحيوانات لم تسلم من شره فأمر بقتل جميع كلاب القاهرة ، الامر الذى يجعلنى أنفر منه . ولكن لابد أن هذا الوحش المتأله كان يملك هالة من المهابة جعلت دروز لبنان يبجلونه الى يومنا هذا ويجعلونه رمزا مجسدا للفضائل التى تجمعت فيه . ومع كل فانى اتردد كثيرا قبل أن الج هذا الجامع ليلا ففيه من الخفافيش البالغ حجمها كحجم الدجاج ما تنقض وهى طائرة حتى بالنهار داخل البرج المربع الذى تسمو منه المأذنة الى طرفها المزخرف ويصدر عنها عجيج يطغى على ضوضاء المارة فى الطريق

وبجامع الحاكم هذا تنتهى سلسلة من الجوامع ذات طابع واحد : طابع العزة الدينية ، تماما مثل جامعى عمرو وابن طولون ، نبعث من هذا الدين الذى ينزع الى الديمقراطية فى أحد نواحيه . فكل الناس داخل الجامع سواسية لا تفاضل بينهم يندمج فيهم الخليفة ولو حضر

فى فاخر ثيابه ووسط شديد حراسه . وكانت هـذه الجوامع تشعر بالروح العسكرية وبالفحولة مثلما كان الشعب يجمع بين شعائر العبادة وحمل السلاح ، واعنى بالشعب هنا المسلمين ، فلم تكن وقتذاك جنسية عربية واخرى تركية ، فالكل سواء يقيمون الصلاة صفوفا خلف امامهم يسجدون لله كما علمهم النبى العربى

ولكن فى جامع الحاكم ما يوحى بأن هناك تغييرا ما . ذلك اننا نعلم ان هذا الخليفة كان مختل العقل طاغيـة ، ونعلم أيضا أن حراسة الذين خصصت لهم احياء كاملة فى المدينة صارت لهم سطوة طغت او كادت على سطوة الشخص الذى كلفوا بحراسته ، فكانت هذه الرقة فى عقود الجامع التى توحى بابتداء اضمحلال سطوة الخلفاء حتى فقدوها كلية ، وظهرت الرشاقة الى حد الانوثةالتى تبتعد عن الروح ذات البأس التى نراها متمثلة بوضـوح فى اعمدة جامع ابن طولون اكثر من أى مكان آخر ،فهى مؤشرات تدل على ان الاسلام فى عهد الحاكم ابتدأ فى الانكماش والدفاع (انتهت الدولة الفاطمية عندما احتل الصليبيون القاهرة لمدة قصيرة سنة ١١٦٣) . ولم تعد الخلافة منذ عصر الحاكم تدل على ماكانت تدل عليه فى القرون الاولى عندما امتطى المسلمون خيولهم مشرقـين ومغربين ، لا حدود تفصلهم عن الدنيا بأسرها ، ثم بدأت الفرقة بينهم ، وما كان الخليفة الفاطمى الا واحـدا من الذين ادعوا حق السلطان لانفسهم ونافســـاه فى ذلك صاحبا بغداد والاندلس

من هنا نترك جامع الحاكم ونستقل سيارة اجرة،وفى طريق العودة . على بعد مئات قليلة من الامتاروفىشارع

بين القصرين الذى اجتزناه من قبل ندع السيارة تقف بنا هنيهة - بدون ان يبطل عدادها عن العد - عند الجامع الاقمر ، وهو احسن جوامع الفاطميين حفظا ، وله واجهة جامدة ضئيلة الزخرفة كعادة الفاطميين . ولا نتلبث عنده الا قليلا ، ونطلب من السائق ان يتوجه بنا الى جامع السلطان حسن قبل ان يدركنا الليل ، وسيسر حتما بمنحة قرش او قرشين زيادة

ويبين جامع السلطان حسن ذو الضريح ان المستوى الحضارى للدين - وليست العقيدة نفسها او تعاليمه - قد ناله بعض التغيير ، كما ان المبانى قد تغيرت فى الشكل والروح ، فهذا الجامع لا يقل عن جامع ابن طولون فى اظهار قوة العقيدة حتى أن مدخله الشبيه بالدهليز يذكرنا بالمعابد الفرعونية التى صممت لتدخل الرهبة والخشية فى نفوس المتعبدين ويشبهها ايضا فى اقامة هذا البناء المتعالى الضخم لاجل ان يضم رفات انسان ضئيل .
ومدخل هذا الدهليز عبارة عن بوابة ضخمة تعلوها طبقات من القرنصات المحفورة ، وفى نهايته نجد صحنا واسعا مكشوفا للسماء التى تبدو بعيدة لان الصحن محاط بأربعة ايوانات كبار ذات عقود طويلة معتمة حتى ليخال انه محاط بغابة من الظلال . ويوجد الضريح خلف ايوان القبلة فى قاعة متسعة ولكنه خال وهو الذى كان مستعدا لاستقبال جثمان السلطان حسن ، واحد من حكام القرن الرابع عشر ليس بذى خطر كمثيله توت عنخ أمون فهو كان السابع من ثمانية اولاد خلفهم الناصر محمد الملوك الذى كانت له سطوة وقوة . ولكن ابنه حسنا لم يستطع ان يقيم قاعدة يمسك بها ازمة الحكم بحزم بالرغم مما كان يكنه من عواطف نحو المصريين المسلمين . وكفاه ذكرا انه

اعطى اسمه لهذه التحفة المعمارية ودليلا ايضا على حالة الدول الاسلامية فى اواخر العصور الوسطى .. وهـذا الجامع ولو انه بنى خصيصا ليضم مقبرة فخمة لمنشئه فهو يضم ايضا اربعة مدارس ، فعلى كل جانب من جوانب الصحن يوجد باب يؤدى الى مدرسة يدرس فيها احـد المذاهب الاربعة المعترف بها فى المذهب السنى، والفروق بين هذه المذاهب صغيرة جدا ولا يمكن ان تقارن بما بين مذهبى السنة والشيعة من اختلاف . ومع ذلك وبالرغم من هـذه الرعاية كما نراها فى هذه المدارس وفى الميضأة الوسطى المخصصة للطهارة والوضوء فاننا نرى فيه رمزا للانطواء فالسلطان حسن بالرغم من ميـله الى المصريين كان مملوكا اى غريبا من طائفة لم تندمج مع الشـعب سواء كانوا فى عز قوتهم مشيدين او كانوا فى قلة حيلتهم متقلبين . من هنا نرى ان جامع السلطان حسن قد قطع بنا شوطا طويلا بعيدا من روح عمرو الذى اقام مدينـة من الخيام وبنى مسجدا متواضعا لجنود ولى عليهم وهم معه سواسية . عمرو هذا الذى قدم من بلاد العـرب المحمدية حيث كان النبى يرقع ملابسه فى بيت متواضع وحيث شاركت النساء فى غزوات الحروب وندوات الادب، بينما نشأ السلطان حسن على تقاليد دعت الى حجزهن فى « الحريم » . ففى جامعه تجلت الملوكية بأوضح معانيها كما تجلت فى وندسور فى انجلترا

اما آخر مرحلة فى رحلة اليوم فهى زيارة القرافة شرقى المدينة ، فهنا شغل المماليك المتأخرون بقبورهم واقاموها خالية من المدارس والميضآت ، انما هيئت للموت فقط . وكثير منها جميل وكثير ايضا متداع ، وتعددت القباب حتى صارت رمزا لمدينة الموت . وقد ابتدىء فى زرع

الاشـــجار فى الاراضى المحيطة ولكن التراب يملأ مابين القبور . هيا نختار واحدا منهـــا . اذن فلنزر ضريح قايتبـاى فعسى أن يكون مفتوحا . وقايتباى واحد من المماليك ذوى النشـاط عاش فى العصر السابق مبـــاشرة للفتح التركى العثمانى . ويمتاز ضريحه بوجود زجاج ملون مرتفع فوق الجدران يسـمح للاضواء ان تمر الى الداخل .. أضواء ليست من صنع مصر

ونكتفى بهذا القـــدر من التراب ومن ذكر الموت ، فالتراب قد زكم الانوف وشعر الانســـان أن الدنيا قد انقلبت ترابية كلها . فلنختم رحلة يومنا هذا فى فلوكة على النيل حتى يغسل النسيم الشمالى كل كآبة أصابتنا استعدادا لسهرة المساء . وفى الفلوكة ــ عندما تقترب الشمس للمغيب ــ نرى مســـجدا جديدا بالقرب من كبرى يصل بين الروضـــــة والجيزة ، أطلق عليه اسم صلاح الدين تسطع عليه أضواء تجعله يتلألأ ناطقا باحياء العمائر التى تمتد الى السماء على الطراز القوطى

الفصل الثانى عشر

القاهرة .. والأمسيات

ان ليل القاهرة يظل عالقا فى الذكر أكثر من نهارها . بل هو مثير للشعور أكثر بكثير من ليالى أوروبا ، ويرجع بعض ذلك الى الطقس ، فحالما تغيب الشمس خلف الاهرامات ، تهبط درجة حرارة الجو هبوطا سريعا ملحوظا سواء كان ذلك شتاء — عندما تكون درجة الحرارة فى النهار حوالى ١٥ درجة — أو صيفا عندما تعلو فوق ٤٠ درجة . وتبدو النجوم أكثر عددا وأشد لمعانا بسبب جفاف الجو ، بخلاف ماتبدو فى الاجواء الرطبة . اذن فما هى المتعات التى ننتظر من القاهرة أن تقدمها لنا عندما ينتشر آلفان من خفراء الليل الكبار السن ببنادقهم العتيقة يجوبون شوارع المدينة المتطورة ويحرسونها ؟

هناك أولا ستة عشر مطعما تنتشر على طول النيل ، يتخذ بعضها مكانا فى العوامات والباقى على الحدائق فى الهواء الطلق ، وتظل مفتوحة طول السنة آمنة من الامطار التى لاتهطل الا دقائق معدودة كل عام ، ولو أن بعض ليالى الشتاء قد تبعث القشعريرة فى الاجسام . أما مطعمى المفضل على النهر فهو كازينو الحمام على الشاطىء الغربى فى الجيزة . والجيزة محافظة منفصلة عن القاهرة لها محافظها الخاص بها ، وهو يحرم بيع

المشروبات الكحولية فى شهر رمضان عندما يصوم أتقياء المسلمين عن الطعام والشراب طول ساعات النهار ، فى حين يسمح بذلك محافظ القاهرة (فى بعض الاماكن التى يرتادها السائحون) . وعلى ذلك فلك الحرية أن تطلب - طوال العام خلاف ذلك الشهر - ماشئت من البيرة والزبيب (١) والنبيذ المصرى . وعصير الكروم المصرية فى الحقيقة يستحق شهرة خلاف ماهو عليه ، فمزارع جناكليس فى الدلتا تنتج أنواعا متعددة من الانبذة الحمراء والبيضاء بأسعار معتدلة ، وهى بالتأكيد أجود بكثير من الانبذة العادية المنتشرة فى فرنسا . وعمر الخيام هو أحسن الانبذة الحمراء كما أن كلوس نسطور أحسن البيضاء . والصنف الوحيد الذى تجده فى المطعم ليؤكل بجانب النبيذ هو الحمام المشوى على الفحم ، وقد اتخذه الكازينو اسما له ، فاذا أخذت فى تناول طعامك أحاطتك - تراقبك بصبر - فرقة من القطط هى حتما نتاج تلك التى كان يقدسها الفراعنة ، ويظللك وانت جالس حفيف أوراق شجر الكافور ، بينما تنساب بجانبك - حتى تكاد تلمسها - الفلائك والمراكب ذات الاشرعة تحركها الرياح رائحة غادية تحمل حمولتها من البضائع ..

وليست القاهرة مدينة يقصدها المهتمون بفنون الاكل وتذوقه ، فمطاعمها - خاصة تلك الملحقة بالفنادق الحديثة - تقدم الطعام الغربى المعتاد الذى تتفاوت درجة جودته من جيد الى متوسط ، ثم انها تقدم لك

---

(١) الزبيب هو الانتاج المصرى للسائل عديم اللون الذى يتحول الى لون أبيض عند خلطه بالماء . وهو معروف باسم أوزو فى اليونان . وراكت فى تركيا . ويسمى فى البلاد الاخرى بالعرقى

الاطباق باردة حتى طبق الاومليت ، فاذا أصررت ـ كما أفعل دائما ـ على تقديمها ساخنة فأغلب الظن فانها ستقدم لك شديدة الحرارة تصدك عن لمسها وتضطرك للانتظار حتى يمكنك الاكل . والحد من استيراد الكماليات يعنى اختفاء بعض الانواع مثل الجبن الفرنساوى أو الايطالى . ولكن اللحوم المصرية جيدة خصوصا لحم الضأن الصغير كما أن هناك أنواعا ممتازة من الاسماك تأتى من البحرين المتوسط والاحمر ويقال ان كمية الفسفور العالية فى البحر الاحمر هى السبب فى ضخامة حجم الجنبرى السويسى

ويمكن معرفة بعض الطرق الشرقية فى تحضير الاطعمة بتناولها فى المطاعم البلدية . واذا كانت باريس مركزا تجتمع فيه مدارس الطهى الغربى فان استنبول هى الاخرى تعد مركز تجمع للطهى الشرقى لايقتصر عليها فقط بل تمتد فروعه الى كل الولايات التى كانت تابعة للامبراطورية العثمانية السابقة ، أعنى اليونان وسوريا ومصر ، وانى شخصيا أضع الطعام المصرى فوق اليونانى واقل قليلا من اللبنانى ، فتجد فى المطاعم البلدية الكفتة والكباب وهما أشهى اصناف اللحوم ويحضر كل منهما من لحم الضأن ، أما الكفتة فتحضر بفرم اللحم ثم شيه فوق شواية ، أما الكباب فيشوى اللحم فى قطع صغيرة منفردة ، وتجد أيضا الملوخية وهى جديرة بأن يتذوقها المرء وهى نوع من الخضروات الغروية التى سبق أن ذكرنا أن الحاكم ـ ذلك الخليفة المجنون ـ قد حرم أكلها . وصنف آخر هو طبق المخ والكبد المقليين وتجده فى مطعم صغير بالقرب من باب اللوق ، أما الكوارع وهى تحضر من حوافر الماشية فلم تمر من بين شفتى ولذلك

لا استطيع أن أحكم عليها ..

وتوجد مطاعم كثيرة نظيفة للوجبات الاقتصادية التى يقبل عليها القاهريون ، وهى مطاعم الفول المدمس والطعمية . وتصنع الطعمية على هيئة كرات صغيرة من خليط مكون من فتات الخبز والفول المجروش والبصل وبعض الاعشاب العطرية وتضاف اليه الخميرة ليصير هشا ناعما ثم ترش الكرات بحبات السمسم وتقلى فى الزيت . وفى هذه المطاعم يمكن للشخص أن يتناول كفايته من الطعام بما فى ذلك رغيف بلدى مستدير وسلاطة بما تعادل قيمته أقل من شلن (خمسة قروش)

ها نحن الان قد فرغنا من تناول العشاء ، والمعتاد فى القاهرة أن تعوض كمية الطعام ماينقصه من الجودة . فماذا بعد ذلك ؟

يجيب القاهريون على هذا السؤال بطرق مختلفة ولكن الامر المعتاد هو أن يقضى النساء أوقاتهن فى البيوت فى حياكة بعض الملابس الخاصة أو فى مشاهدة التليفزيون أو الاكتفاء بالتحدث مع غيرهن من النساء . أما الرجال فيتوجه كل منهم الى مقهاه من ضمن ستة آلاف مقهى منتشرة فى المدينة ليشرب الشاى ويقطع الوقت مع غيره فى لعب الطاولة او فى مشاهدة التليفزيون أو مجرد الحديث ، وهذه متعات تلزمهم الجلوس ولا تنطلق بهم . غير أن الشبان صاروا ينتمون الى الاندية الرياضية ليمارسوا بعض الالعاب ، والا فانهم يزحمون الارصفة عند مداخل دور السينما

وامسية الخميس هى امسية السينما بلا منازع لان الجمعة هو يوم الراحة . وفى القاهرة اثنتان وتسعون دارا للسينما يختار المرء منها مايحلو له ، وجمهور

السينما فى العواصم العربية لايقل حماسا لها ابدا عن امثاله فى البلاد الاخرى . والقاهرة هى المدينة العربية الوحيدة التى توجد فيها صناعة سينمائية ضخمة فقد انتجت استوديوهاتها التى تقع على طريق الاهرام أفلاما منذ العشرينات . وكان الانتاج فى بعض السنين يزيد على مثيله فى بريطانيا ، الامر الذى جعل بعض المخرجين الرواد مثل يوسف شاهين يبدى أسفه لان الكثرة طغت على الجودة وسلبته المقدرة على الوقوف بجانبها . ويأخذ الفن السينمائى المصرى اسلوبا واحدا لايغيره . ولى تجربة شخصية مع هذه الصناعة عندما كانت تحت السيطرة الراسمالية ، فقد دعتنى صديقة لتناول الغداء مع أحد المنتجين الكبار وهو من أصل شامى بدأ حياته فى تصميم زينات لشعور السيدات (وربما كانت جوستين احدى عميلاته - البطلة الروائية فى رباعية لورنس دوربل) ثم خصص نفسه لتصميم الافلام للملايين العرب.

وطلب منى قائلا « أريد قصة يامستر ستيوارت تليق بنجمتينا الكبيرتين فاتن حمامة وشادية ، وستكلفانى معا نصف ميزانية الفيلم ، فلذلك أطلب أن تحتوى القصة على شىء جديد مبتكر » . وقد سبق أن شاهدت هاتين السيدتين ، احداهما - فاتن - متزوجة من عمر الشريف الذى لعب دور الشيخ فى فيلم لورنس ، وهى فيما أعتقد أشد الممثلات اخلاصا لعملها ، والاخرى - شادية - فتاة ظريفة تبدو مرحة ولها صوت رفيع

سألت « أتطلب شيئا واقعيا ؟ »

فرفع يديه بأظافرهما الملمعة فزعا وقال « اعوذ بك يامستر ستيوارت . أرجوك ان جمهورنا من الطبقة الفقيرة وعندهم مايكفيهم من الواقعية ، انما أريد لهم

ان ينطلق بهم خيالهم بعيدا عنها »

وهذا لايطابق الواقع كما شاهدت في الافلام المصرية ، ولكنني كنت في ذلك الوقت محتاجا الى المال ــ كما تعلم بذلك صديقتي ــ وكان ما عرضه على ــ مقابل عشرين صفحة ــ ما اقنعني . الا أن صديقا حذرني ناصحا : « خذ حذرك فانهم سيدفعون لك أجرتك عن كل مرحلة من العمل الا الاخيرة منها » وقد تبين صدق قوله فكنت لا انال ما أستحقه الا على أقساط ضئيلة وبعد الحاح وكلما اتصلت بالمنتج تليفونيا فاما أن يكون « نائما » أو « متغيبا في سوريا » . ولما انتهيت من القصة وبقي لي ثلث ما أستحقه قيل لي في نبرة استياء « كان يمكن لابني أن يسطر في صفحتين ماملأت به عشرين صفحة ، أما عن لغتك الانجليزية فان ابنتي وهي طالبة في الجامعة الامريكية تقول أن المستر ستيوارت يكتب لغة انجليزية جيدة ولكنها ليست بالانجليزية الخالصة »

وماذا كان في مقدوري أن أفعل . لقد كنت غير فخور عن هذا السيناريو غير الواقعي . ألم أظهر شادية في أحد المناظر وهي محرومة من الاولاد تبكي وفي يدها كتاب مفتوح من كتب الاطفال جالسة على أريكة من طراز لويس السادس عشر ، فاذا انتهى هذا المشهد المرسوم تجف الدموع وتتحول الى بسمات ونرى شبانا في سياراتهم وطائراتهم ثم تنتهي بهم حبكة القصة بغسل الدموع بالغناء والرقص . وقد مثلت كل من فاتن وشادية دورها جيدا

وقد مثلت فاتن أيضا في فيلم « دعاء الكروان » وهي تراجيديا تدور وقائعها في الصعيد الفها الاديب الكبير الدكتور طه حسين . واخت فاتن في القصة يغويها محام

فتنهض هى للانتقام منه ، وكان النصف الاول من الفيلم واقعيا الى درجة تظهر فيــه الاقدام حافية تحــوطها الخلاخيل . الامر الذى لم نسمع به من قبل . وهبط النصف الثانى ، وفيه نرى المحامى يصـــطحب فاتن ـ التى نراها فى زى سيدات الزمالك ـ الى نزهة على شاطىء البركة ، وهو مالايخطر مطلقا على بال احد فى الصعيد المحافظ

ولعبت شادية بعد ذلك دور فتاة من بنات الليل فى احسن فيلم ـ فى رايى ـ انتج الى الان ، هو فيــلم « اللص والكلاب » كتب قصــته نجيب محفوظ حول شرير تطارده الصحافة ، وهو سفاح أصيب بلوثة وانتهى به الامر بأن حوصر وقتل بالرصاص تماما مثل ماحدث للمجرم الامريكى ويللنجر . وقد رمز نجيب محفوظ بهذا القاتل عن الشخص الحــديث الحائر الذى خانه مرشده وتخلى عن مبادئه . ومن العجب أن هذا الفيلم قد خلا من مواقف المرح المصــطنع والفقرات الخطابية الجــوفاء ، فجـاء السـيناريو سريع الحــركة قاســيا مثيرا قليل الحوار ... ولم يكن سبب انحراف البطل تافها فقد دفعه اليه ـ اثناء عمله كخادم فى بيت الطلبة ـ طالب يسارى لايقيم وزنا للقيم الروحية . وكان هذا الطالب يعتقد أن المبادىء الاخلاقية قد بليت وعفى عليها ، وأن اللص فى البلاد الرأســمالية حينما يسرق انما هو شــخص تقدمى ، وهى افكار قد عفى عليها فى الغرب ولكنها لاتزال تأخذ بقلوب بعض الاشخاص . الا أن هذا الطالب يغدو صحفيا ناجحا ويتزعم حركة مطاردة تلميذه الذى طبق دروسه بحسن نية ، ثم ينشرح صدره عندما يبلغه نبأ مقتل المجرم . صرعه رجال الشرطة برصاص

المدافع الرشاشة بجوار جدران جامع الجيوشي . ولم يبكه أحد سوى بائعة الهوى

وهناك علامات توحي بأن الاسلوب المعتاد الذي يسيطر على قصة الفيلم المصري لم يعد له مجال كبير ، وظهرت مناقشات في الصحف كان اتجاهها ضد الاعتماد على أسماء النجوم فقط لما تبين ـ كما أخبرني صديقي المخرج ـ أن ذلك كان يستغرق الجزء الاكبر من ميزانية الفيلم الضئيلة (حوالي ٢٥٫٠٠٠ جنيها) فلا يبقى الا القليل لكاتب السيناريو وبقية الفنيين المتخصصين ، كما أن أكثر النجوم ليست لهم قدرة فنية كبيرة ، لان خبرتهم في التمثيل نبعت نتيجة لاجتهادهم الشخصي ، ولم تنبع نتيجة للتدريبات المنتظمة في دور التمثيل التعليمية . وقد يقفز أجر الوجه الجديد المبتدىء ... اذا لقي حظوة لدى الجماهير من ١٥٠ جنيها في الفيلم الاول الى ألفين من الجنيهات في الفيلم الثاني ، ثم يملأه الاطراء بالغرور طول حياته ، مالم يكن ـ مثل عمر الشريف ـ صاحب موهبة حقيقية

ويمكن القول بأنه لن يتم انقاذ الفن السينمائي المصري والنهوض به الى المستوى الذي يجعله جديرا بالتقدير في الدوائر السينمائية العالمية الا عن طريق النهضة المسرحية التي تعد الظاهرة الثقافية الكبرى فيمصر والتي استمرت قوية منذ ظهورها في أوائل الستينات

وقد ظهر التمثيل المسرحي في مصر في نهاية القرن التاسع عشر واستمر بشكل أو بآخر حتى سنة ١٩٥٢ فلا نجد فيها سوى مسرحين جادين فقط ، أما الآن فهناك ما لا يقل عن ثماني عشرة فرقة مسرحية تعمل على أربع عشرة دارا مشيدة للتمثيل ، وهذه الفرق قابلة للزيادة . وتختلف المسرحيات التي تقدم على مدى واسع ابتداء

من الكوميديات المحلية التى تتخذ فيها عناوين مثل « بابا مايعرفش » الى ترجمات من بيكت ويونسكو . ومن هذه المسارح مسرح الجيب الذى أنشىء ليعرض المسرحيات العالمية الطليعية ، كما أنشىء مسرح توفيق الحكيم ليعرض مسرحيات الكاتب المسرحى الاول فى مصر ، وكذلك أنشىء معهد عال للفنون المسرحية يتخرج منه ممثلون شبان يجد كل منهم عملا ـ بضمان من الحكومة ـ حال تخرجه . وقد أجريت حديثا مع الوزير المسئول عن الثقافة فى مكتبه فى أحد الادوار العليا من مبنى التليفزيون العربى على النيل مندوبا عن هيئة الاذاعة البريطانية شرح فيه اتجاه الحكومة نحو الثقافة فقال:

« منذ قيام الثورة صارت مقاليد الحكم فى أيد مصرية صميمة ، وذلك لاول مرة منذ العصور الوسطى . وهدف الحكومة هو تعميم حد أدنى من الثقافة بين جماهير شعبنا جميعا ، ولا تبرر اقامة شخص فى أسوان أو حتى فى واحة سيوة أن يكون بعيدا عما يجرى حولنا فى العالم الحديث ، بل يجب أن يكون على بينة من ذلك ، اما بقراءة الصحف أو حتى بمشاهدة التليفزيون ، ونحن سنوجه مجهودنا الاكبر ـ بدون أن نستحيى من ذكر ذلك ـ الى الجمهور الكبير لاننا نعتقد أنه عندما يتمكن جميع أفراد الشعب من معرفة القراءة والكتابة وأن يعمهم جميعا حد أدنى من الثقافة فقد كونا بذلك قاعدة عريضة قوية يمكن أن نبنى فوقها الى أن ينتهى بنا البناء الى قمة هرمية من الكفاءة العالية »

وهذه المحاولة الواعية لجعل القاهرة مركزا للاشعاع الثقافى لجميع انحاء البلاد يظهر واضحا فى الموسيقى ، وبشكل أوضح فى الغناء . وقد كانت الكلمة طوع فصاحة العرب دائما ، وفى نفس الوقت تؤثر بسهولة

على عواطفهم ، وكان الشعر هو الفن الصحراوى الفذ ، وفى مصر المثقفة الان تغلغلت أغانى أحمد شوقى واحمد رامى الشعرية فى الجماهير المريضة باستماعها الى صوت سيدة فريدة هى السيدة أم كلثوم ، وهى الان فى الخمسينات من عمرها ، ولها معجبون فى العالم العربى كله . ومن عادتها أن تقيم حفلاتها فى الخميس الاول من كل شهر فتمتلىء المقاهى من بغداد الى مراكش انتظار لأغنيتها الجديدة . ويوجد فى القاهرة بالقرب من ميدان التوفيقية مقهى أم كلثوم ، وهو مَن ثلاثة طوابق ، الأرضى منها مفتوح على الشارع وهو مقهى عادى بأنواره وضوضائه ، والطابق الثانى خافت النور وبه مسجل للصوت ينساب منه صوت أم كلثوم قويا يستمع اليه شباب من الطليعة وموظفى الحكومة والجنود ساعات متواصلة وهم جالسون يرتشفون القهوة فى هدوء ، أما الطابق العلوى فالنور فيه اشد خفوتا يجلس فيه المدمنون على الاستماع فى خشوع تام حيث تعتبر مجرد الهمسة بخسا فى محراب الفن

أما بخصوص الفنون الشعبية فقد اتجه تشجيع الدولة لها نحو التهذيب دون البتر أو الحجر أى ـ على حسب التعبير الفرويدى ـ ان الدولة أخذت وظيفة الأنا (السوبر ايجو) أى النفس الحكيمة التى تضبط وتنظم « الاد » أو الغرائز اللاشعورية التى تهيمن على الجماهير . وقد طبق هذا التهذيب على الرقص

ولكى ندرك هذا الموقف يجدر بنا أن نرجع الى أوائل القرن التاسع عشر عندما ألف لين كتابه عن عادات المصريين . ففى ذلك الوقت ذكر لين أن الراقصين كانوا صنفين : الاول منهما يتكون من الفوازى وهن نساء قبيلة معينة كن يرتدين عند الرقص زى السيدات

التركيات الانيقات فى ذلك العهد ، وهو عبـــارة عن سراويل واسعة وصديرية وحزام يغطيها كلها قفطان ذو اكمام مدلاة مشـــقوقة ، ويضعن فوق رءوسهن قلنسوة منبسطة . وقد تتبع لين أصولهن حتى العصر الرومانى . وكن مطلوبات للرقص أمام الضيوف الرجال فى حفلات الزفاف . وكتب لين الوقور « أما عن رقصهن فيكاد يكون خاليـــا من الاناقه ، وأهم ما يميزه هو هز الارداف هزا سريعا من جانب الى آخر »

وحيث أن التقاليد المحافظة النابعة من الدين فى ذلك العهد كانت لا تسمح باختلاط الجنسين ، فما بالك برقص النساء أمام الرجال حتى ولو كن من طائفـــة احترفت هذه المهنـــة من قديم الزمان . فان ذلك استدعى ظهور الصنف الثـــانى من محترفى الرقص للتغلب على هذا الاعتراض واعتبره بعض الفيـــورين أفضل قليلا من الاختلاط . وهذا الصنف يتكون من رجال من اهل البلاد يتزيون بزى النساء وينتحلون شخصيتهن ، وعلى ذلك يؤدون نفس الحركات التى وصفناها عند ذكر رقص الفوازى ، وعلى نغمـــات الصاجات مثلهن تماما ، وحتى لا يشتبه على البعض فيعتقد انهم من النساء حقيقة فقد تخير هؤلاء الراقصون لزيهم لباسا يتفق مع مهنتهم غير الطبيعية ، يخلط بين ملبس الرجال وملبس النســـاء ، ويتـكون عادة من صديرية ضيقة وحزام مع نوع من « الجـونلات » .. الا أن منظرهم العام يوحى بأنه نسائى أكثر مما هو رجالى لانهم يطلقون شعورهم ويجدلونها ــ كما تفعل النساء ــ على شكل ضفائر نسائية ، وينتفون شـــعر الوجه عندما يبدأ فى الظهور ، وكانوا يقلدون النساء أيضا فى تكحيل العيون وصبغ الأكف بالحنة ، ثم انهم

بعد الانتهاء من أداء رقصاتهم ، يتحجبون أثناء سيرهم في الطرقات لا استحياء من مهنتهم بل احكاما في تقليد النساء . وكثيرا ما كانوا يفضلون على الفوازى للرقص امام الدور أو فى أفنيتها الواسعة فى مناسبات الزواج أو انجاب الاولاد أو الختان ، وكثيرا أيضا ما كانوا يزاولون مهنتهم فى المهرجانات الشعبية العامة

أما رقص البطن المنتشر فى النوادى الليلية الحديثة (وفى القاهرة منها خمس وعشرون ناديا ليليا) فهو آخر مرحلة من تطور رقص الفوازى ، وبدلة الرقص ليست من تقاليد البلاد فى شيء ، انما هى اعتقادات خاطئة فى أذهان بعض مصممى الازياء الاوروبيين ابتدات عندهم عند عرض منظر الرقص فى أوبرا « عايدة » . وهذه البدلة تبدى جزءا عاريا من الجسم بين غطاء الصدر النحاسي اللون وبين الجزء السفلي الشفاف . وفى عهد فاروق كان كل معجب براقصة يرمى تحت اقدامها بعملات ذهبية رقيقة كصفائح الصفيح فتأخذ كل راقصة ما يلقى عليها من عملات وتثبتها فى بدلة رقصها كالترتر

وكانت المنطقة العارية من البطن اول ضحايا « التهذيب » الحديث ، فصدر قرار بعد الثورة بوجوب تغطيه هذا الجزء من البطن بالشاش أو بالتل . وحاول عبثا بعض ذوى الافكار النظرية خلق نوع من الفن « الخالص » من هذه الرقصة المثيرة للغرائز والتى تأخذ فى أسوا حالاتها شكل هزات كأنها الرعاشات على توقيعات سريعة من ضربات متلاحقة على الطبول . وكثيرا ما نجد عازفا كفيفا فى الفرقة الموسيقية ، ولا يقتصر اداء رقص البطن على النوادى الليلية مثل الموجود فى فندق هيلتون ، بل يمكن مشاهدته فى اى

حفل زفاف فى المدينة حيث تهتز البطون العارية مع نفس الحركات والايماءات المتوارثة كما كانت من قبل على الدوام . ولا يزال فى الامكان استخدام الراقصين الرجال المتزيين بزى النساء ، وقد تركوا شواربهم تكبر وشعورهم تنمو الى جدائل طويلة وينتفون حواجبهم وصاروا يعرفون الان باسم « ابو الفيط » بدل اللقب الذى كان يطلق عليهم سابقا لانه صار الان نوعا من الشتائم والاهانات ذلك أنه أصبح يطلق على المخنثين من أصحاب الشذوذ الجنسى

واذا كانت الفوازى والمتشبهون بالنساء مظهرين من مظاهر « الاد » أو الغريزة فان فرقة رضا للفنون الشعبية تحظى بالقبول لدى « السوبرايجو» أو « الأنا » وكان السبب فى تكوينها أن فرقة أوبرا بكين زارت القاهرة بعد اعتراف مصر بالصين الشعبية مباشرة ، وعند وجودها فى القاهرة قدم السفير الصينى دعوة « لفرقة مصرية راقصة » أن تزور بلاده . وسببت هذه الدعوة حرجا حيث لا يمكن التفكير مطلقا أن ترد الزيارة فرقة من الفوازى أو المتشبهين بالنساء ، ومن ناحية أخرى لا توجد فرقة أخرى صالحة ، ولكن لم يلبث هذا الحرج طويلا حيث بادر كل من محمود رضا وزوجة أخيه فريدة فهمى وكونا فرقة راقصة بسرعة تستحق الاعجاب ، ونالت هذه الفرقة شهرة عند الجماهير نتيجة لحبهم اياها . وقد تكونت هذه الفرقة فى مبدأ أمرها من طلبة جامعيين (وقد سبق لمحمود رضا أن قام بالرقص لمدة عام فى باريس مع فرقة الفريدو الاريا الارجنتينية الراقصة) وتعرف الفرقة الآن « بفرقة الجمهورية العربية المتحدة لفنون الرقص الشعبى » وكما جاء فى جريدة « الاراب اوبزرفر » عنها فان الفرقة

« قدمت فى السنة الماضية باليه كاملا باسم « عروسة النيل » تحكى قصة عاشقين قرويين ــ على غرار روميو وجولييت ــ ولكنها تنتهى نهاية سعيدة . وصار هذا الباليه محور عروض الفرقة فى تجوالها فى المانيــــا ويوغوسلافيا والاتحاد السوفييتى حيث قدمت سبعة وعشرين عرضا ، واشتركت الفرقة فى يوغوسلافيا فى مهرجان للرقص الشعبى وحازت على الجائزة الاولى »

أما الفن الشعبى الآخر وهو القراجوز فقد تغير هو أيضا تغييرا شاملاً مماثلا لما حصل للرقص ,وهو يشبه عروض بانش وجودي في بريطانيا ، ,وكلمة قرة جوز ــ وهى كلمة تركية تعنى «العيون السود» ــ كانت اسما لأحد مهندسى صلاح الدين ، ولكن لا نعرف كيف أطلقت على هذا الفن الذى تتوه بنا أصوله الاولى عند السهول الصحراوية على مشارف الصين . وكان القــراجوز يعرض على طريقة خيال الظل فكانت عروضه لا تقام الا ليلا كما ذكر لين فى كتابه المذكور . وقد عثر على مجموعة جميلة من عرائس القراجوز فى حفريات فى الفيوم (على بعد ساعة بالسيارة من القاهرة) وهى الان موجودة فى برلين ، وقد صنعت فى القرن السادس عشر لتسلية أحد البكوات المماليك . وتمتاز بيريه فى اليونان الان بعروض القراجوز فى شكل خيال الظــل وعلينا أن نتوجه لهذه المدينة اذا رغبنا فى مشاهدة هذا العرض فنشاهد أشكالا شفافة ملونة مصنوعة من الرق وهى تلعب كوميديات غالبا ما تكون مخلة بالاداب . أما فى القاهرة فلا يزال القراجوز يطلق على عرض للعرائس مثل « بانش وجودى » تصاحبه جلبة عالية ، ,ويطوف فى شــوارع المدينــة بصــحبة بعض البهــلوانات ,وعازفى الصندوق الموسيقى ــ البيانولا ــ الذى تزينه صــور

سيدات على الطريقة النابولية . واعرف شخصيا اثنين ممن يحترفون هذا الفن من العرائس القفازية الذين سرعان ما يجذبان جمهورهما بأصواتهما ذات النبرات العالية نحو كشكيهما ذوى الالوان المبهرجة ، ويندمج الاطفال فى بعض الاحيان مع هذه العرائس الى درجة أن يقفز من بينهم طفل يحاول ان يقرص واحدة منها تحت السرة تكون قد أثارته ، الامر الذى يبعث السرور عند مرتشفى القهوة الجالسين على شرفات المقاهى

وكما امكن تهذيب رقص الغوازى والمتشبهين بالنساء الى فن من الرقص الشعبى، كذلك أمكن تطوير القراجوز الى مسرح للعرائس تحت اشراف وزارة الثقافة . وكانت فرصته التى ساعدته على الظهور انشاء مسرح خاص بأنواره التى يمكن التحكم فيها . وفى يناير سنة ١٩٦٣ ألف صلاح جاهين ــ أحسن رسام كاريكاتورى واضخمهم ايضا ــ رواية « حمار شهاب الدين » لهذا المسرح وهى قصة خرافية وقعت حوادثها فى بغداد ولكن على أحدث التقاليد . وكانت الاضاءة بديعة وتحريك العرائس بارعا . ولكن بالرغم من براعة صلاح شاهين كزجال وليس كرسام كاريكاتورى فقط. فان من كتبت هذه الرواية تحت رعايتهم اشترطوا عليه ألا يأتى بأى فحش فى القول أو عنف أو نكات ذات ثورية . فكان هذا الوقار سببا فى فقدان كثير من المميزات الخاصة بهذا النوع من الفن والتى نجدها فى العروض الشارعية . وهذه الاخيرة التى لا تنتفع بأية مساعدة مالية من الدولة تذكر ــ أو هى تعرف بالغريزة ــ بديهية دورانتى أستاذ فن العرائس العظيم فى القرن التاسع عشر الذى يقول فيها «ماتؤديه العرائس هو أهم الف مرة مما تنطق به »

الفصل الثالث عشر

العلم والتعليم

ظلت القاهرة طوال الف سنة معدودة بأنها أهم مركز لنشر العلم فى أفريقية ، ولا شك أن هذه الصدارة لم تكن على الدوام ميزة خارقة ، ذلك لانها صدارة على عدد قليل جدا من معاهد العلم فى تلك القارة ، ولكن هذه الميزة زادته جدارة فى المائة السنة الاخيرة

ويأتى تفوق القاهرة فى مضمار نشر العلم نتيجة لانشاء الازهر فى السنة التالية لدخول الفاطميين الى مصر ، وكان انشاء هذا المسجد الجامعة دفعة حيوية لمصر والاسلام وأفريقية ، فحق علينا هنا أن نشيد بصاحب الفضل فى قيام الازهر ونذكر اسمه كاملا فهو جوهر الكاتب الصقلى (١) ، وينطق المصريون الجيم فى أسمه جامدة ولا يمطشونها كما تمطش فى كثير من البلاد العربية

وقد اتسع الازهر (جامع الازهر) كثيرا على مدى الاعوام والقرون ، أما الجامع فيحتوى على تعويذة عجيبة ، هى عبارة عن رسم لطيور موجودة فى أعلى أعمدة ثلاثة من أعمدته ، وذلك من اجل منع الطيور

(١) معروف فى كتب التاريخ العربية بجوهر القائد الصقلى لا بجوهر الكاتب . (المترجم) فهو صاحب السيف الذى فتح مصر للفاطميين

الحية من اتخاذ اعشاش لها داخل مبانيه . وكما بنيت كليات اكسفورد أصلا حول الكنائس والمحاريب (ولم تخطر فكرة انشاء بيوت مخصصة لمعيشة الطلبة الا فيما بعد) فكذلك كان المسجد هو النواة التى امتد الازهر حولها فخرج عن نطاق التعويذة وأصبح لا شيء يحول دون زقزقة العصافير ان تنازع انصراف الاساتذة الى القاء محاضراتهم . ولكن على حين ان اكسفورد ـ التى قامت بعد الازهر ـ أخذت تتقدم وتتطور سريعا بعد القرن السادس عشر فقد بدا أن الازهر ظل راكدا ، كبلته التقاليد الموروثة وان اعترف لها بأنها تشتمل على محاسن كثيرة ، ولا يزال العلم فى الازهر يروع زائره الى اليوم حين يرى أستاذا مبجلا مهيبا يتحلق حوله تلاميذه وهم قعود على الابسطة فى الجامع الكبير . ولكن مناهج الدراسة كانت محدودة وطابعها سلقيا ، فهى مقتصرة على تدريس تجويد القرآن وعلم الحديث وقواعد اللغة العربية والفقه الاسلامى

أما الطلبة انفسهم فكانوا يقسمون حسب موطنهم ، ولكل قسم مكانه الخاص به ، للاقامة والدرس داخل الازهر ، وتسمى أمكنة الاقامة بالحارات وأمكنة الدرس بالأروقة . والرواق مكان محدد بين أعمدة معينة . واليك بيان أقسام الأروقة حتى القرن التاسع عشر :

رواق الصعايدة (مصر العليا) ـ رواق المجاورين (مكة والمدينة) ـ رواق أبناء السودان ودارفور ـ رواق الشوام ـ رواق أبناء جاوة ـ رواق أبناء الافغان ، رواق المغاربة (شمال افريقية) ـ رواق أبناء الصومال ـ رواق الاتراك ـ رواق الاكراد ـ رواق أبناء الهند ـ رواق أبناء بغداد ـ رواق أبناء النوبة ـ رواق أبناء

الواحات والفيوم . أما الايرانيون فلم يكن يفـد منهم احد لتمسكهم بالمذهب الشيعى ، فالازهر وان نشـأ على مذهب الشيعة قد تحول الى مذهب أهل السـنة بعد زوال حكم الفاطميين . حقا هيهات أن نجد فى الماضى أو الحاضر جامعة دينية مخصصة لتدريس المذهب الأم (كالكاثوليكية فى المسيحية) تضم مثل هذا الحشـد الهائل من الطلبة الذين يضمهم الازهر من بلاد مختلفة .

أما تأثير الازهر ـ حتى فى أيام تخلفه ـ فعظيم ، لأن أئمة الدين فى المجتمعات الاسلامية المختلفة فى أنحاء العـالم اتخذوه منارا وعدوه ينبوعا لأصول الدين قبل تفرق المذاهب (كالارثوذكسية فى المسيحية)

وهناك مرحلتان رئيسيتان مر بهما الازهر فى محاولة تجديده ليلائم العصر ، الاولى بتأثير من الشيخ محمد عبده فى العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، اذ جعل للأساتذة مرتبات ثابتة دائمة ، وأضـاف بمجهوداته كليات جديدة . أما المرحلة الثانية فجاءت بعد ثورة سنة ١٩٥٢ بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر ، فقد أدركت حكومته أن المتخرجين من الازهر يعودون الى كل ركن من أركان أفريقية وآسيا غير مؤهلين الا لتدريس الدين واللغة العربية ، ورأى الرئيس جمال عبـد الناصر ومستشاروه أن فى استطاعة هؤلاء الخريجين أن يكونوا قادة ـ كل واحد منهم فى موطنه ـ لا باقتصاره على تدريس العلوم الدينية وحدها ، بل كذلك بتـدريس أساليب العلوم والنظم العملية اللازمة للمجتمعات النامية

.. اذن يجب على الازهر أن يكون معهدا تقدميا يساير العصر دون أن ينحصر داخل العلوم التقليدية ، فبفضل هذا التطور يتحقق الصالح العام للعالم الاسلامى . فكان

ان ظهرت حركة تشابه تلك التى انتجت القسيس العامل خارج كنيسته للخدمة العامة عند الكاثوليك . والان نرى الهندسة وبقية العلوم تدرس لطلبة الازهر ، كما سمح للبنات بالالتحاق به ، وهو امر لم يكن يتصوره احد حتى فى الجيل السابق القريب العهد بالجيل الحاضر

وفى سنة ١٩٦٤ اعلنت خطوة جديدة جذرية وهى مشروع اقامة جامعة جديدة للازهر على مساحة ٥٠٠ فدان فى مدينة نصر ، وهى ضاحية سريعة النمو لها ادارتها الذاتية وتقع شمال العباسية ، كما ستخصص ١٥٠ فدانا أخرى فى القبة لانشاء كلية اسلامية للبنات تابعة للازهر

ان تطور الازهر وهو يضم ٤٠ الف طالب موزعين على معاهده الابتدائية والثانوية والمخصصة للدراسات العليا انما هو ــ من أحد الجوانب ــ نتيجة تحد من نظام تعليمى آخر فى مصر ، نظام علمانى صرف ، فعلى حين ظل سيل من التلاميذ يرتدون القفطان والعمامة ، ويدرسون وفقا لمنهج سلفى لم يتبدل الا قليلا منذ القرون الوسطى ، تدفق سيل آخر يرتدى الملابس الافرنجية ويدرس علوم الذرة والاقتصاد السياسى ، ولم يكن بين التيارين الا اتصال قليل أو قل لم يكن بينهما اتصال على الاطلاق

وترجع هذه الثنائية فى نظام التعليم الى المدارس العسكرية التى انشاها محمد على ، واتسعت الهوة بين النظامين خلال القرن التاسع عشر ، منذ انشاء دار العلوم سنة ١٨٧٣ الى اقامة جامعة فؤاد سنة ١٩٢٧ ، وامداد هذه المعاهد العليا بالطلبة يستند الى نظام تعليمى بين

ابتدائى وثانوى .. هو الآن اجبارى وبالمجان . ونسبة الالتحاق بالجامعة من بين الطلبة الذين اتموا الدراسة الثانوية هى أكبر من مثيلتها فى بريطانيا اليوم ، ولكن هذا لايعنى ان المستوى يرتفع الى نفس الدرجة ابدا ، ولكن احصاءات التعليم عن سنة ١٩٦٣ - ١٩٦٤ توضح مدى انتشاره فمثلا بلغ عدد الطلبة فى المدارس ٦٠٨ الف طالب منهم ٢٦٢ الفا من الطالبات ، ويبلغ مجموع عدد الطلبة الملتحقين بالدراسات الجامعية دون الدراسات العليا فى جامعتين فى القاهرة من أربع جامعات (جامعة القاهرة التى حل اسمها محل جامعة فؤاد ، وجامعة عين شمس) ٧٢٫٩١٣ طالبا منهم ١٦ الف طالبة أو أكثر قليلا ، وهذه الارقام وان بينت أن النساء لم يأخذن قسطهن فى مجال التعليم كاملا ، الا انه يبين فى نفس الوقت سرعة انتشار تعليم البنات . وكل النساء اللاتى يقمن بدورهن المتزايد الفعال فى الحياة المصرية خريجات هذه الجامعات ، وخير مثل منهن هى حكمت أبوزيد الوزيرة (السابقة) للشئون الاجتماعية التى كان من أعبائها أن تنشىء ٧٠٠ مركز لتنظيم النسل فى جميع انحاء الجمهورية

ولأن القاهرة ترى نفسها مركزا تعليميا لافريقية ، فانها - فضلا عن منح عشرات الالوف من الشبان والشابات الافريقيين منحا دراسية فىمعاهدها - تستغل قوة الاذاعة التعليمية فتذيع من محطة الاذاعة المصرية « برنامج صوت أفريقية » يوميا باللغات الامهرية والسواحلية ، واللنجالا والسيسوتو ، والنيانجا ، والصومالية ، والفولانية ، والهوسا ، وأخيرا باللغتين الانجليزية والفرنسية لمن لم تكن لغته احدى هذه اللغات

الفصل الرابع عشر

القاهرة .. والفراعنة

يمكن أن يعتبر هذا الفصل القصير سلبيا ، فليست القاهرة فرعونية فى شىء ولكنها تحوى المتحف المصرى فى ميدان التحرير ، ويضم أفخر مجموعة من الاثار المصرية فى العالم . ويمكنك فى مقابل قرشين التجول فى أكثر من مائة غرفة فيه تضم بقايا مدنية ابتدأت منذ عرف الانسان معيشة المدن . ويمر سيل لاينقطع من الزوار من كل انحاء العالم أمام أثاث توت عنخ آمون المتين أو يواجه موميات رمسيس الثانى وسيتى الاول (وكانت الموميات فى عهد فاروق محجوزة عن أعين السواح ، فقد اعتبر هذا الملك هؤلاء الفراعنة ملوكا سابقين يجب أن تضفى عليهم جلالة الملوك ، أما الجمهورية الديمقراطية فقد سمحت - نظير رسم قدره ٢٥ قرشا - بدخول القاعة رقم ٥٢ حيث تعرض الموميات حاليا) . ويفخر القاهريون بمتحفهم ويعتقدون أنه السبب الرئيسى لحضور ٤٠٠,٠٠٠ زائر سنويا للبلاد . ولكن الاسماء التى اشرفت على هذا المتحف ليست مصرية فقد انشأه أوجست مارييت الفرنسى وصمم مبانيه مارسل بورجنون عالم المصريات ، والدراسات التى بدات بأوروبيين أمثال شامبليون وماريت لم تشمل المصريين باعداد كبيرة الا أخيرا ..

واذا كانت القاهرة مدينة اسلامية وليست فرعونية ، فانها فى نفس الوقت مركز باهر للدراسات الفرعونية . وترجع جاذبيتها العظمى فى هذا المجال ــ حتى للسائح الخالى البال ــ الى قربها من الجيزة وسقارة . وهناك عرض بالصوت والضوء عند الاهرام يقام كل ليلة يسترجع الوف السنين التى سبقت البطالسة . ويستقبل أبوالهول ــ وقد تجلى بعد ازالة الرمال من حوله ــ أشعة الشمس كل صباح على جبينه وهو يحدق بلا مبالاة ناحية المدينة . ويمكنك أن تشاهد ــ وأنت واقف على جبل المقطم عند الضاحية الجديدة ــ سلسلة من الاهرامات تمتد جنوبا حتى نهاية البصر . واذا وصلت الى محطة القاهرة قادما من الاسكندرية أو بورسعيد فستشاهد خارجها تمثالا ضخما لرمسيس الثانى ــ الذى اكتشف قريبا فى سقارة ــ واقفا وحيدا مديدا تخرج من أقدامه نافورات من المياه

ولكن التأثير الواضح للفراعنة على القاهرة هو محاكاة لتصميماتهم ونقوشهم تزين بها قاعات المطاعم أو ترسم على بعض الاقمشة

ولعلى أكون مخطئا فى ذلك . فهناك تأثير ايجابى فرعونى واضح ، ذلك أن الشابات يضعن الكحل حول عيونهن التى هى واسعة أصلا . كما أنهن ــ بحيلة فنية ــ يتوصلن الى ارسال شعورهن السوداء على نمط شعر نوفرت الجالسة على الدوام بجوار زوجها الامير رع حتب فى الغرفة رقم ٣٢ بالدور الارضى فى المتحف .

فهرس

صفحة



هذا الكتاب

هذا الكتاب نموذج شائق وطريف لكتابات المثقفين من الصحفيين الرحالة الاجانب هواة المدن الذين يحاولون بذكاء أن يستقطروا روح أمة وشخصية بلد من خلال عاصمتها وعن طريق التجربة الحية والخبرة الشخصية . ان المؤلف لا يقدم للقارىء ـ فى صورة مختصرة ـ معلومات كثيرة استقاها من المراجع ، وانما يحكى بأسلوب أدبى ما أحس به هو ذاته داخل نفسه وهو يجوب أحياء القاهرة يعرض أحاسيسه على لوحة من الحقائق التاريخية .. انه رأى الالوان وأطياف الالوان وشم الروائح وسمع الهدير والصمت واستقرأ الوجوه والاسطح والجدران واكوام القمامة . فالكتاب اذن ـ كما يقول الدكتور جمال حمدان الذى قدم للكتاب ببحث قيم ممتع بعنوان « القاهرة الكبرى ... دراسة فى جغرافية المدن » ـ الكتاب قصة رحلة فى الزمان والمك... وعرضها زيارة ولكنها قصة دسمة ثرية مع ذلك وممتع... ذلك . وأحيانا يكون الكاتب الاجنبى أقدر من ابن البلد ... ليس مثله ضحية الالفة والعادة . وسيجد « ابن القاه... أشياء كان يقع عليها بصره من قبل ولا ينتبه اليها ..

١٠ قروش